الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلة التاريخية المصرية

المجلد رقم (١) -العدد (٢) -مايو ١٩٤٩م

غارات النورمانيين على الأندلس

بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ – ٨٤٤ و ٨٥٩ م

وسفارة يحيي الغزال إلى ملك النورمند فى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥ م.

١

عبد الرحمن الأوسط وعصره

حينما تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط العرش كان الأندلس الإسلامى قد سلخ من عمره قرناً وإحدى عشرة سنة . وكانت الإمارة الأموية الأندلسية قد خلفت وراءها ستاً وستين سنة ، وهما فترتان قصيرتان لم يكد أى قطر إسلامى آخر يحقق خلالها شيئاً ذا بال ، فقد كانت مصر مثلاً إذ ذاك ولاية إسلامية تابعة للخلافة العباسية لم تظهر بعد شخصيتها ، وكان أهلها لا يزالون يتحسسون طريقهم إلى الوعى الذى لن يظهر بصورة واضحة بعض الشيء إلا فى ظلال الطولونيين ، بعد ذلك بنحو نصف قرن . أما الأندلس الإسلامى ، فكان قد أيفع فى ذلك الحين واشتد عوده ، وظهرت شخصيته القوية ونزعة أهله القومية التى حفزتهم إلى هذا النضال المجيد الذى حملوا عبئه دفاعاً عن قطرهم ، من غارات نصارى الفرنج فى الشمال الشرقى ونصارى الإسبان فى الشمال الغربى .

ولعل قطراً إسلامياً آخرلم يسر فى طريقه بخطى ثابتة ، وعن وعى ناضج ، كما فعل الأندلس الإسلامى ، منذ قيام الإمارة الأموية سنة ١٤٠ هـ/٧٥٦ م ؛ فقد استطاع عبد الرحمن الأول أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال التى كانت تملأ أذهان العرب والبربر الذين اقتطعوا لأنفسهم نواحى الأندلس وأرادوا الاستقلال بها ، على عهدهم إذا لم يقسرهم سلطان حازم على الوحدة والطاعة والنظام ، وقضى فى ذلك ثلاثاً وثلاثين سنة لم يعرف خلالها للراحة طعماً ، إلا خلال ثلاث سنوات متفرقة يعينها المؤرخون بالذات .

ثم أقبل ابنه هشام ، فجعل همه القضاء على أطماع النصرانية فى الشمال ؛ وأقبل بعده الحكم بن هشام ،وكان شاباً مرحاً طروباً للحياة ، فحسب الأندلسيون أنهم بالغون فى عهده ما أعجزهم بلوغه فى أيام أبيه وجده ، واستخفوا به ووثبوا به هذه الوثبة الخطرة التى تعرف « بثورة الربض » ، فألهبت هذه الوثبة شرارة العبقرية الكامنة فى نفسه ، فتصدى لها بحزم وثبات ، وقضى عليها ، وأعاد أهل الأندلس إلى صوابهم . وحينما انتهت حياته فى ذى الحجة سنة٢٠٦ هـ — ٨٢٠م استطاع الحكم أن يسلم ابنه عبد الرحمن بلداً هادئاً وادعاً ، تشرئب نفوس أهله إلى فترة من الأمن والسلام ، ليريحوا أنفسهم من قلاقل السنوات الماضية .

وكان عبد الرحمن نفسه شاباً ذكياً متفائلا بالحياة ، يعرف كيف يستمتع بأطايبها دون أن يخلد إلى الخمول والترف ، فكان على انصرافه إلى اللهو المعتدل يقظاً يرقب كل شيء بعين الواثق من نفسه المستعد للنهوض إلى الأهوال إذا تداعت . . . وهبت على رعيته نسمات من خلقه ، فانصرفت إلى العمل والدرس والاستمتاع بالحياة ، وكثر ورود المشارقة إلى الأندلس ، حاملين الخير الكثير والعلم الكثير . وأخذ الشعب الأندلسى الذى نشأ من مزاج من العرب — بذكائهم الفطرى وشجاعتهم واعتزازهم بأنفسهم — والبربر بدأبهم على العمل وصبرهم على المضانك وإخلاصهم لما يؤمنون به ، والإيبيريين الرومان بما عرف فيهم من شجاعة وشدة مراس وميل إلى الإبداع الفنى ، أخذت مواهب هذا الشعب تتجلى خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى) وقامت دولتهم زاهرة ، بين عالم إسلامى شرقى منهار متفكك يسير نحو الفوضى والاضطراب ، وعالم أوربى نصرانى غربى انحلت وحدته وسادته الفوضى من جديد بعد انهيار الدولة الشرلمانية وتقسيمها بمعاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ م ، ولعل مؤرخاً لم يجمل وصف حال البلاد الأندلسية حينما صارت أمورها إلى عبد الرحمن الأوسط بمثل ما قاله صاحب الأخبار المجموعة : « ... وألفى الملك قد مُهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التى جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين[1] » . . . فأتيحت لعبد الرحمن الداخل الفرصة لينهض بالعمل الذى أجمله ابن الأبار حين قال : « وهو الذى استكمل فخامة الملك

(١) الأخبار المجموعة ، ص١٣٥.

بالأندلس ، وكسا الإمارة أبهة الخلافة ، وظهر فى أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور ، وشيد القصور وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادى ،، وهو القائل متشوقاً ومفتخراً :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبا   فما أقطع الليـــل إلا نحيبا
ولمـــا بدت لى شمس النهـــا   ر طالعة ذكرتنى « طروبا »

و « طروب » هى جاريته المفضلة العزيزة عليه بين نسائه ، وقد قال فيها عبد الرحمن شعراً كثيراً وأغدق عليها مالا كثيراً[١] .

وكان عبد الرحمن إلى جانب ذلك ذا إحساس فطرى بما ينبغى للملك وإدارة شؤون الدولة من سمت ونظام ، ولا يصور لنا هذه الملكة فيه قول عيسى بن أحمد الرازى : « إنه الذى أحدث فى قرطبة دار السكة » وضرب الدراهم باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب ، وفى أيامه دخل إلى الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن بجالبيه ، ووافق انتهاب الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمويين ، فجلبت إليه ، وانتهت جبايته ألف ألف دينار فى السنة ، وهو الذى اتخذ للوزراء فى قصره بيت الوزارة ، ورتب اختلافهم إليه فى كل يو م ، يستدعيهم منه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم برقاع فيما يراه من أمور الدولة[٢] » . وهى عبارة عظيمة الأهمية فى تاريخ النظم السياسية الأندلسية .

وكان الرجل يفهم واجب الحاكم حيال الرعية حق الفهم ، ولابن سعيد رواية تضع عبد الرحمن فى الرعيل الأول من أجلاء حكام المسلمين وأعرفهم بمصالح الرعية ، وذلك حيث يقول : « رفع له أحد المشتغلين بتثمير الخراج أن القنطرة التى بناها جده على نهر قرطبة ، لو رسم على الدواب والأحمال التى تعبر عليها رسم لاجتمع من ذلك مال عظيم ، فوقع : نحن أحوج إلى أن نحدث من أفعال البر أمثال هذه القنطرة ، لا أن نمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح ، فتكون عائدته قليلة لنا ، وتبعته وذكره ألسن علينا . وهلا كنت نبهتنا إلى إصلاح المسجد المجاور لك الذى قد تداعى

---

(١) الحلة السيراء ، طبعة دوزى ، ص ٦٢ . وانظر رأى دوزى فى هذه الجارية فى :
Dozy: Musulmans d'Espagne. I, p. 309.

(٢) رواه ابن سعيد : المغرب (مخطوط دار الكتب) ، ج ٣ ، ص١٠٢ .

جداره واختل سقفه ، وفصل المطر مستقبل ؟ ولكن أبى الله أن تكون هذه المكرمة فى صحيفتك ! وقد جعلتُ عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك ، فيكون ما ينفق فيه منك ، وأجره لنا إن شاء الله[١] . . »

ولكن عبد الرحمن كان إلى جانب ذلك كله ليناً لا يعسر على أحد التسلط عليه ، فكان « نصر » الخصى صاحب سلطان واسع فى دولته ، يفعل ما يشاء ، حتى لقد بلغ به الأمر أن استهان بمولاه وحاول « سمه بشربة ، لولا أن نبه عليها عبد الرحمن ، فقال له : « اشربها أنت ! » فشربها وخرج ، فأشار عليه طبيبه بلبن العنز فلم يوجد حتى هلك[٢] » . وكانت « طروب » تسرف فى الدلال عليه ، فلا يتحرج من التذلل لها ؛ وكان الشوق إليها ربما دفعه إلى ترك الجيش الصادر إلى الغزو والعود إليها مسرعاً ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الخصى[٣] » ، وكان يتبذل مع خواصه تبذلا يتنافى مع جلال مركزه : ومن دلائل ذلك ما ذكره ابن حيان : « أن الأمير عبد الرحمن كان مصغياً لأحكام التنجيم ، ولم يكن عنده من المنجمين مثل « ابن الشمر » ، فلما عاد عبد الرحمن ذات مرة من الغزو قرر أن يبيت خارج قرطبة فيدخلها من الغد فى موكب كامل ، فقال ابن الشمر : لتعلم أنك مغلوب على ذلك ! ولا بد لك الليلة من المبيت فى قصرك ! فقال : والله لادخلته ! فقال : والله لتدخلنه مكرهاً ، ولأكونن فى هيئتى شبهك فى طريقى إليه ، وسوف ترى » ، مما يدل على جرأة ابن الشمر واستطالته عليه فى الحديث . وكان يحيى بن يحيى الليثى فقيه الأندلس إذ ذاك يتصرف فى أمور القضاء تصرف المستبد الجرىء[٤] .

وكانت نتيجة هذا الإسراف فى اللين ، وهذا التبذل المفرط ، أن اختصم رجال الدولة على السلطان ، وجعل بعضهم يكيد لبعض ، وقد رأينا « نصرا » الخصى يدبر اغتيال الأمير ، وكانت الخصومة حامية بين زرياب المغنى ورجال الدولة ، وسنرى أنها ستشتد بين زرياب هذا ويحيى الغزال ، وستنتهى بنفى

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ص ١٠٧ ب ، ١٠٨ ا

(٢) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ص ١٠٦ ب

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ، ص ١١٣ ا .

يحيى إلى المشرق ، وكان الأمير فى هم دائم من ناحية أبنائه حتى كان يحبسهم فى قصور بعيدة ويضع عليهم الأحراس خوفاً منهم[١] ، ويخيل لمن يقرأ أخبار هذه الفترة أنه فى بلاط بيزنطى تسوده الفتن والدسائس والتدبيرات .

ولا شك أن الحظ السعيد حالف عبد الرحمن ، فلم تضطرب عليه النواحى ، كما اضطربت على أبيه وجده ، وكما ستضطرب على ابنه محمد وحفيديه المنذر وعبد الله من بعده ، بل سادها هدوء يبدو لنا كأنه فاصل بين عهدين من الاضطراب الشديد . وربما كان لين عبد الرحمن ، وإسرافه فى الاستمتاع بثمرات جهود من سبقوه ، هو الذى أجج النار فى نواحى الأندلس على عهود هؤلاء الأمراء الذين أتوا من بعده . وكان أهل الأندلس فى هذه العصور من أميل الناس إلى الوثوب والخروج على الطاعة ، وكانت طبيعة بلادهم تواتيهم على ذلك . ولكن البلاد لم تكن هادئة تماماً على عهد عبد الرحمن ، ولا شك أن ابن سعيد المغربى قد بالغ فى إحسان الظن بعصره حينما قال : « وكان سعيداً . قال ابن فرج : ما علمت أنه خرج عليه مع طول أيامه خارج خلا ما كان من موسى بن موسى بن قسىّ بناحية الثغر الأعلى ، ولم يشغله النعيم ووصل البعوث إلى دار الحرب . وكان مكرماً لأصناف العلماء محسناً إليهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى كثيراً[٢] ويشاوره » ، وقد بالغ ابن سعيد فى هذا القول ، لأن الواقع أن المؤرخين سجلوا لنا كثيرا من الثورات وحركات العصيان فى أيامه[٣]، ثم إن

(١) المقرى ؛ نفح الطيب ؛ جـ ٢ ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ جـ ٣ ص ١١٧٢ .

(٣) أوجز «جوستاف ديركس» أخبار الاضطرابات التى نشأت فى نواحى الأندلس على أيام عبد الرحمن فيما يلى : ثورة موسى بن قسى فى سرقطة وهزيمته لجند الأمير عبد الرحمن بمساعدة النفاريين ؛ واستقلال ماردة عن حكومة عبد الرحمن ، وثورة طليطلة وأهلها واستعصاؤهم على الطاعة رغم ما بذله عبد الرحمن وأبوه الحكم من جهود ؛ ثم استقلال طليطلة وإقليمها بين سنتى ٨٢٩ و ٨٣٧م ومحالفتهم أرودينو الأول ملك أشتريس ؛ والحرب المخربة التى ثارت بين القيسيين والمصريين فى إقليم مرسية ؛ ثم غزوات النورمانيين .

Gustav Dierks: Gesch. Spaniens von den fruehesten Zeite bis auf die Gegenwart p. 227.

النورمانيين هاجموا الأندلس على أيامه، وهددوا الدولة الإسلامية تهديداً خطيراً، لولا أن استطاعت حكومة عبد الرحمن ردهم عن البلاد بكفاية وحزم عظيمين، وكان هجومهم أعظم ما تهدد مصير الدولة الأموية الأندلسية إلى ذلك الحين من أخطار .

٢

النورمانيون

نجد هؤلاء النورمانيين فى جميع مراجعنا العربية مذكورين باسم « الأردمانيين » أو « المجوس » . فأما التسمية الأولى فواضحة الدلالة، فالأردمانيون هم النوردمانيون أى أهل الشمال، وقلب النون إلى همزة فى أوائل أسماء الأعلام ليس بغريب فى لسان أهل الأندلس، فهم يقولون مثلا « أربونة ». فى « نربونة » . وأما تسمية النورمانيين المجوس فلم أجد بين القدماء أو المحدثين من حاول تعليلها ، لأنهم لم يكونوا مجوساً ، وإن كان معظمهم فى ذلك الحين وثنيين ، فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة[1] . ولعل العرب قد أطلقوا عليهم هذه التسمية ، لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يمرون به : كانوا إذا نزلوا بمكان وعسكروا فيه أشعلوا ناراً ضخمة فى معسكرهم ، وإذا فاجأوا بلداً أشعلوا النار فى مبانيه ونهبوا ما فيه ، ويغلب على الظن أن المسلمين حسبوهم من عباد النار فسموهم بالمجوس .

ويجمع المؤرخون الإسلاميون على أنهم ظهروا أمام سواحل الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٣٠ هـ — ٨٤٤ م . ويحدد ابن سعيد تاريخ ظهورهم تحديداً دقيقاً فيجعله يوم « الأربعاء لأربع عشرة خلت من المحرم[2] من هذا العام » (٢٣٠هـ سبتمبر ٨٤٤م) ، وقبل أن نمضى فى تتبع غزواتهم فى الأندلس يحسن أن نتتبعهم إلى بلادهم لنرى من أين أتوا بالضبط وأسباب طرقهم الأندلس فى ذلك التاريخ بالذات .

---

(١) Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.
وانظر . ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ؛ ص ٦٦ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ ج ٣ ص ١٠٦ .

من أين أتى النورمانيون الذين أغاروا على الأندلس ؟ يعرف النورمانيون فى التواريخ الأوربية باسم الفايكنجز *Vikings* ، وهى كلمة مشتقة من لفظ *Vik* أى الخليج أو « الفيورد » ، ويراد بذلك عادة أولئك القرصان الملاحين الذين يأوون إلى الخلجان ، ويستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها[١] . ومواطنهم الأولى فى شبه جزيرة اسكنديناوة (السويد والنرويج) ، وشبه جزيرة جوتلند ، وما يجاورها من الجزائر (دانيمرقة) . وهم جنس آرى قديم سكن هذه النواحى منذ أزمنة سحيقة فى القدم ، وقد ذكرهم يوليوس قيصر فى بعض كتاباته فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنهم لم يظهروا على مسرح التاريخ إلا من أوائل القرن السادس الميلادى . إذ قامت حرب بينهم وبين الفرنجة[٢].

ومنذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، أخذت أعداد النورمانيين النازلين فى « جوتلاند » – وما يحيط بها من الجزائر – تتزايد تزايداً دفعهم إلى التماس المخرج فيما يجاورهم من البلاد . وكان شرلمان فى حروبه مع السكسون قد أوغل فيما وراء الراين حتى وصل شلزويج[٣] ، فرده الدانيون (الدانماركيون) عن بلادهم ، والتحموا لأول مرة فى حرب مع الفرنجة وانتصروا عليهم ، فجرأهم انتصارهم عليهم على التقدم فى إمبراطوريتهم والتماس المخرج والمغنم فيها . وكانت زيادة السكان فى اسكنديناوة قد دفعت بالنورمانيين فى السويد والنرويج إلى الخروج إلى الغزو ، ولم يستطيعوا النزول بأراضى شرلمان ، فاتجهوا فى تيارين عظيمين نحو الشرق والغرب : عبر السويديون البلطيق ونزلوا عند مصب الدنيبر ، وعبر النرويجيون بحر الشمال إلى جزائر « شتلاند » و « فارو » و « إيرلندا » ، وتوقف اندفاع نورمان دانيمرقة إلى الجنوب حتى إذا مات شرلمان ، وأخذت إمبراطوريته تتفكك ، زال ذلك الحاجز الذى كان يحول بينهم وبين فرنسا وإسبانيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط ، فانحدروا نحو الشرق والغرب والجنوب فى ثلاثة تيارات عنيفة لا يكاد يقف فى طريقها شىء .

ولكى نكون لأنفسنا فكرة عن قوة هجوم هؤلاء الشماليين ومدى التغير الذى كانوا قادرين على إحداثه فى البلاد التى لا يجدون فيها ما يمنعهم من

---

(١) Allen Mawer : The Vikings, Cambr. Med. Hist. III, p. 306.

(٢) John Danstrup : A Hist. of Denmark, p. 15.

(٣) Danstrup: op. cit. p. 17.

تثبيت أقدامهم على أرضها ، نذكر أن النورمانيين الذين خرجوا من السويد وعبروا البلطيق نزلوا عند مصب « الدنيبر » فى أوائل القرن الثامن الميلادى ولم يلبثوا أن أنشأوا لأنفسهم مركزاً كبيراً عند بحيرة « لادوجا » ، ومن ثم أخذوا يتوغلون فى الروسيا هابطين مع الڤولجا ، وأنشأوا بلداً كبيراً هو « هولمجارْت (نوفجورود) » وأسسوا مدينة « كييف » وسط جماعات الصقالبة (السلاف) التى كانت تسكن السهوب الروسية فى ذلك القرن . وكان يقود هؤلاء النورمانيين السويديين قائد عظيم قادر هو روريك *Rurik* ، فاتخذ من «كييف» و « نوفجورود » مركزين لأعماله ، وسيطر على الصقالبة فى هذه النواحى سيطرة بلغ من امتدادها أن لفظ روتسى *Ruotsi* — وهو الاسم الذى « أطلقه الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الأولى بحوض البحر البلطيق» — أصبح يطلق على الصقالبة الذين خضعوا لهم (١). وعن « روتسى » نشأ لفظ « روس » *Ros* الذى عرف به صقالبة حوض الڤلجا والدنيبر من ذلك الحين . وقد ظل السويديون يحكمون حوض الڤلجا من سواحل بحر البلطيق إلى البحر الأسود وأسوار القسطنطينية بضعة قرون ، وحاصروا القسطنطينية أربع مرات (٨٦٠ و ٨٨٠ و ٩٠٧ و ٩١٤ م) وعلموا عشائر السهوب الروسية إنشاء الدول ، ووجهوا تاريخهم كله توجيهاً جديداً (٢) .

وأما التيار النورمانى الذى خرج من النرويج واتجه غرباً ، فقد خرج من النرويج وبدأ ينوش سواحل إنجلترا وإيرلندا منذ أوائل القرن السابع ، حتى إذا بدأ القرن التاسع ازداد هجومهم عنفاً ، ولم يكن أقل من التيار السويدى الشرقى شدة ولا بعد أثر . فقد غزوا انجلترا ولم يلقوا مقاومة تذكر ، وكانت غزواتهم أول الأمر غارات سريعة لا تلبث أن تنقضى ، ثم أخذوا يستقرون على الشواطىء ابتداء من ٨٣٥ م ، وتشجع النورمانيون الدانيون ، فأقبلوا يشدون أزر بنى عمومتهم النرويجيين ، وعم طوفان غزواتهم معا انجلترا وإيرلندا بين سنتى ٨٥٠ — ٨٩٢ م حتى اضطر ملوك «وسِكْس» إلى أن يتنازلوا لهم عن جزء عظيم من جنوبى غرب إنجلترا

(١) انظر . تاريخ العصور الوسطى تأليف فيشر وترجمة زيادة والعرينى ، القسم الأول ، ص ١١٥ . وعلى هذه الوتيرة انتقلت تسمية « العرب » من الفاتحين إلى كثير من الشعوب التى فتحوا بلادها كالمصريين مثلا ، فصاروا يسمون بالعرب أو أولاد العرب .

يمتد من لندن إلى "تشستر . ولم يرتد أذى النورمان عن إنجلترا إلا حينما نهض « ألفريد الكبير » ملك وسكس ، واستطاع هزيمتهم وتخليص إنجلترا من أذاهم حوالى سنة ٩٠٠ م [١] . أما فى أيرلندا ، فقد بدأت غزواتهم هناك منذ القرن السابع الميلادى : أقبلوا إليها من الشمال عن طريق جزائر « شتلند » « وفارو » ، وكان القائمون بها نورديون ، وقد أخذت هذه الغزوات أول الأمر شكل غارات سريعة : فكانوا ينزلون من مراكبهم حيث يجدون من السكان غرة يلتمسونها ، ويخطفون من القرى والمزارع ما يستطيعون حمله ثم يعودون إلى سفنهم . فلما أنسوا من أهل الجزيرة ضعفاً ، جعلوا يستقرون على ضفاف مصبات الأنهار ، ويتخذونها مراكز يتوغلون منها إلى الداخل ، وربما ابتنوا حصوناً ليحتموا بها من الأهلين إذا ساروا إليهم . ثم أقبل الدانيون فى أثر إخوانهم النرويجيين ، وأخذوا يشنون على البلاد غارات عنيفة منذ سنة ٨٤١م ، وأخذت غاراتهم شكلا عنيفاً خطراً فى سنة ٨٤٢م ، حيث غزوا أيرلندا بأسطول مكون من ٣٥٠ سفينة ، واستولوا على « دبلين » ، واشتدت وطأتهم على الأديرة والكنائس خاصة ، فلم يدعوا ديراً أو كنيسة فى متناول أيديهم إلا نهبوها نهباً ذريعاً . وانتهى أمرهم إلى الاستقرار فى أيرلندا ، وفى شمالها بوجه خاص[٢] .

وحوالى سنة ٨٣٤ م ظهر من بين هؤلاء القراصنة النورمان المسيطرين على أيرلندا زعيم قوى يسمى « تورجايس *Turgeis* » غزا شمالى أيرلندا كله ، ونهب ميث *Meath* وكونوت *Cnnaught* ، واستطاع أن يسود الجزيرة وينشر فيها وفيما يجاورها من النواحى رعبه وأذاه ، وبلغت قوته أوجها سنة ٨٤١ م حيث نهب دير أرماغ *Abbacy of Armugh* . وكانت الحرب دائمة بينه وبين الأيرلنديين ، فما زالوا به حتى وقع فى أيديهم وأغرقوه فى « لوخ أويل» *Loch Owel* سنة ٨٤٥م ؛ واشتد أذى النورمان بعد موته حتى لم تسلم من عاديتهم ناحية من نواحى أيرلنده ، وفى سنة ٨٥٣م أقبل « أولاف الأبيض » ملك النرويج إلى هذه الجزيرة ، وأطاعه جميع من كان فيها من النرويجيين والدانيين والأيرلنديين[٣] .

---

(١) J. Danstrup: op. cit. p. 18.

(٢) Allen Mawer: op. cit. p. 311.

(٣) Allen Mawer, op. cit. p. 317.

ويذهب الأستاذ « ألين ماور » إلى أن سفارة يحيى بن حكم الغزال – التى سنتحدث عنها – إنما أتت إلى أيرلندا وقابلت هذا الزعيم تورجايس الذى ذكرناه ، ويذكر تأييداً لرأيه أنه كانت لتورجايس هذا زوجة تسمى أوتا *Ota* أو *Tota* ، يرجح أنها « طود » أو « تود » الملكة النورمانية التى تحدث عنها الغزال ، وقال فيها شعراً كثيراً كما سيجىء[١] .

ولكن « جيورج ياكوب » – الذى ترجم نص رحلة الغزال إلى الألمانية وعلق عليه – لا يذهب هذا المذهب ، ويقرر أن الغزال لا بد أن يكون قد لقى ملك النورمان فى ناحية من نواحى جوتلاند ، واعتمد فى ذلك على ما قرره فابريتسيوس قبله[٢] . ولم يحدد « دوزى » لهذا اللقاء مكاناً ، ولكنه يقرر أن النورمانيين الذين أغاروا على الأندلس كانوا دانيين ، وأنهم أقبلوا من دانيمرقة إلى بلاد الفرنج وأشتريس والأندلس ، فإذا كان الغزال قد سفر إلى ملك من ملوك النورمانيين ، فلا بد أن يكون هذا الملك ملك دانيمرقة ، ولا بد أن الغزال لقيه فى دانيمرقة نفسها[٣] . فلنلق نظرة على تطور الأحوال فى دانيمرقة فى ذلك الحين ، ولنتبع انسياح غارات النورمانيين الدانيين إلى الجنوب حتى وصلوا إلى بلاد المسلمين فى غرب إسبانيا وجنوبها .

٣

ظهور النورمانيين فى الأندلس

خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى كان شرلمان مشغولا بحرب السكسون وزعيمهم « فيدوكند » . ولم يكن يفكر فى المساس ببلاد النورمانيين الدانيين فى جوتلاند ، لأن حروبه مع السكسون وانشغاله بتأمين دولته من غارات الجرمان فى كل ناحية ، واهتمامه بأمور إيطاليا والبابوية

---

(١) Allen Mawer: op. cit. p. 317.

(٢) انظر Georg Jacob: Arabische Berichte... p. 38 No. I

A. Fabricius, apud: Akten des Stockholmer Orientalisten Kongresses. Section 1, Fascicule 1, Leiden 1891, 8. 121 ff.

(٣) انظر : Dozy: Recherches, 1, pp. 250-251.

لم تكن لتسمح له بالفراغ اللازم للتدخل فى شؤون النورمانيين فى جوتلاند وما يليها شمالا . ولكن حدث أنهم آووا «فيدوكند» بعد انهزامه سنة ٧٧٧ م ، فغزا شرلمان جنوب جوتلاند ، وأنشأ حصناً عند « إيتزهو » *Itzhoe* على نهر الألب ، فكانت نتيجة ذلك أن قام « جوديفريدوس » *Godë fridus* (*Gotricus* =) ملك دانيمرقة فى ذلك الحين وجمع جيشاً وأسطولا وأرصدهما بناحية سلسفيك *Slesvik* (= *Schleswig*) ، ليؤمن بلاده من غارات الفرنجة ، وأخذ يستعد لمهاجمة شرلمان ، ولكنه توفى سنة ٨١٠ م قبل أن يشرع فى ذلك . وجاء بعده الملك هارولد *Harold* ، وأفاد من استعدادات سلفه ، وساعده الحظ بموت شرلمان سنة ٨١٤ م ، فجرؤ على السير برجاله نحو الجنوب لمغاورة نواحى بلاد الفرنجة ، وتوالت غارات النورمانيين على النواحى الشمالية القاصية من دولة الفرنج . واستشعر هؤلاء العجز عن رد أولئك الغزاة المغامرين الذين كانوا يضربون ضربات سريعة ثم يعودون إلى بلادهم ، وحاولوا أن يتقوا شرهم بتحويلهم إلى المسيحية كما استطاعوا اتقاء شر السكسون بنشر المسيحية بينهم ، ولكنهم لم يوفقوا إلى شيء كبير : على الرغم من أن «هارولد» نفسه دخل فى النصرانية سنة ٨٢٦ م(١) . وزادت غارات الدانيين على بلاد الفرنجة عنفاً خلال العشرين سنة التى تلت موت شرلمان ، لأن أبناءه احتربوا من بعده ، وحينما استقر الأمر للملك لوثار بن لويس التقى فى دولة الفرنجة صالح « هارولد » على أن يسكت عنه مقابل إعطائه جزيرة فالخيرين *Walcheren* . ولم يكف الدانيون عن مغاورة بلاد الفرنجة رغم ذلك . فأغاروا على جنوبى الموزل سنة ٨٤٢ م ، وأخذت غاراتهم على شواطئ دولة الفرنجة تمتد إلى الجنوب شيئاً فشيئاً .

ثم حدث نزاع على العرش الدانى بين « هارولد » وزعيم آخر من أقاربه يسمى « هوريك » أو هاريك ، واستطاع هذا الأخير أن يتغلب على هارولد ، وينفيه ، وينادى بنفسه ملكاً على نورمان الدانيمرقة سنة ٨٤٤م . ولما كانت غارات هؤلاء النورمان على الأندلس قد بدأت فى ذلك العام ، فلا بد أنها وقعت فى عهد « هوريك » هذا ، وقد ظل على العرش إلى

---

(١) John Danstrup: A Hist. of Denmark, p. 21.

سنة ٨٥٤ م[١] ، ومن ثم فهو الذى سفر الغزال إليه ولقيه كما سنرى .

وكان الدانيون قد احتلوا ناحية فريزلاند (*Friesland*) من شواطئ بحر الشمال ، واتخذوها مركزاً دائماً لهم يخرجون منه للإغارة على شواطئ بحر الشمال وسواحل دولة الفرنجة الغربية وما يليها إلى الجنوب . ففى سنة ٨٤٣ م ظهروا عند مصب « الموار » ، واحتلوا جزيرة « نوارموتييه *Noirmoutier* » واتخذوها قاعدة حربية بحرية ، وفى أواخر هذا العام وصلت مراكبهم مصب جَرُونه « الجارون » ، ودخلته وعبثت بالبلاد الواقعة على مجراه الأدنى ؛ وهكذا وصل النورمانيون إلى أقصى شواطئ الفرنجة ودوقية أكويتين ، ولم يبق أمامهم إلا الانسياح نحو الجنوب والإغارة على شواطئ إسبانيا الغربية . وقد بدأ هذا منذ أوائل سنة ٨٤٤ م .

ولما كانت دولة الدانيين تشمل جزءاً كبيراً من جنوب النرويج فى ذلك الوقت ، فقد كانت بعض طوائف الغزاة والقرصان النورمانيين التى قامت بهذه الغارات على سواحل أوربا الغربية آتية من النرويج ، وقد استنتج الباحثون ذلك من أن كتاب هذا العصر يسمون هؤلاء الغزاة فى بعض الأحيان باسم الڤستفالدنجى *West faldingi* ، أى الڤستفالديين ؛ وڤستفلد *West fald* مقاطعة فى غرب النرويج كانت خاضعة للدانيمرقة فى ذلك الحين[٢] .

بدأت غزوات النورمانيين على شواطئ إسبانيا بغارة على سواحل « اشتريس » الشمالية ، فنزلوا بالساحل عند بلدة جيخون[٣] ونهبوا إقليمها . ثم واصلت سفنهم سيرها بحذاء الساحل حتى وصلت جليقية عند « برج هرقل » الذى كان يسمى إذ ذاك « فاروم بريجانتيوم *Farum Brigantium* » على مقربة من « كورونيا » (*Coruna*) ، وأغاروا على هذه الناحية[٤] . ولم يكادوا يتوغلون داخل جليقية حتى تصدى لهم ملك اشتريس ردمير الأول *Ramiro I* ، وأرسل للقائهم قوات أجبرتهم على العودة إلى مراكبهم ،

---

(١) Allen Mawer, op. cit. III. pp. 313-315

وهو يسميه Georg Jacob, op. cit. p. 38 No. 1. Eric Haric

(٢) Allen Mawer, op. cit. III. p. 316.

(٣) وأصل الاسم فى اللاتينية Gegio.

(٤) Espana Sagrada, XIX p. 13 sqq.

وحاربهم الأشتوريون فى البحر ، وأحرقوا سبعين سفينة من سفنهم[١] . فمضوا بما بقى لهم من المراكب وساروا بحذاء الساحل الغربى للأندلس الإسلامى ، فظهر وأمام أشبونة يوم الأربعاء أول ذى الحجة ٢٢٩ هـ — ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م على ما ذكرناه .

* * *

ولم تكد مراكب النورمانيين تظهر فى بحر أشبونة « حتى ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة (إلى عبد الرحمن الأوسط) يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس ، معها أربعة وخمسون قارباً . فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ[٢] » مما يدل على أن عبد الرحمن وعماله كانوا مقيمين على الأهبة دائماً حتى من هذه الناحية الغربية التى لم يتهددهم منها أى خطر إلى هذه الساعة ، بل لم يكن ينتظر أن يهددهم منها أى خطر .

ولم ينتظر أهل الأشبونة حتى تأتيهم قوات الأمير ، بل نهضوا للقاء الغزاة الذين استولوا على البلد وعاثوا فيه ثلاثة عشر يوماً ، وتمكن أهل الناحية من هزيمتهم وإرغامهم على العودة إلى سفنهم . فساروا فى البحر بحذاء الساحل يبحثون عن ناحية ينزلون بها ، وتفرقت سفنهم إلى جماعات صغيرة ، طرق بعضها « قادش » وبعضها « شُذونة » ، ولكن معظم مراكبهم تجمعت أمام مدخل « الوادى الكبير » ، لتقوم بغارة مركزة على إقليم إشبيلية فى أوائل سنة ٢٣٠ هـ — سبتمبر ٨٤٤ م .

ويصف ابن عذارى ظهورهم فى مياه إشبيلية وطرقهم إياها بقوله : « فخرج المجوس فى ثمانين مركباً كأنما ملأت البحر طيراً جوناً ، كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً ، فحلوا بأشبونة ثم إلى « قادس » وإلى شذونة ، ثم قدموا على إشبيلية ، ونازلوها نزالا إلى أن دخلوها قسراً ، واستأصلوا أهلها قتلا وأسراً ، فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام[٣] » .

وقد أحدث ظهورهم فى بحر إشبيلية ودخولهم مصب الوادى الكبير

---

(١) Dozy: Recherches, I. p. 250.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ . وقوله « طيرا جونا » إشارة إلى أشرعة مراكب المجوس : وكانت سوداء .

ذعراً شديداً بين السكان يصفه ابن القوطية بقوله : « ففروا بين أيديهم ، وأخلى أهل أشبيلية أشبيلية ، وفروا منها إلى « قرمونة » وإلى جبال أشبيلية ، ولم يتعاط أحد من أهل الغرب مقاتلتهم ، فاستنفر الناس بقرطبة وما والاها ، وخرج الوزراء بأهل قرطبة ومن جاورها من الكور ، وقد كان استُنفر أهل الثغر من أول حركة المجوس عند احتلالهم أول الغرب ، وأخذهم بسيط لشبونة ، فحل الوزراء ومن معهم بقَرمونة ، ولم يقدروا على مقاعرة القوم (يريد مقارعتهم) لشدة شوكتهم . حتى قدم عليهم أهل الثغر[1] » ، مما يفهم منه أن النورمان لم يستولوا على إشبيلية وحدها حينما طرقوها ، وإنما انساحوا فى بسيطها ، واستولوا على كثير من نواحيها . ثم يقول ابن عذارى بعد ذلك ، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً ، (ووقعت) بينهم وبين المسلمين بها وقائع ، ثم ساروا إلى قادس ثم إلى شذونة ، فكان بينهم وبين المسلمين وقائع[2] » . ونزولهم بهذه الموانى الإسلامية الثلاثة فى فترة قصيرة يدل على أن أسطولهم — حينما وصل أشبونة — تفرق إلى شعب كثيرة ظل بعضها فى أشبونة ونواحيها ، وطرق بعضها الآخر ما مرّ به من الموانى على عهد النورمان ، حينما كانوا يغيرون على ناحية . ثم تجمع أسطولهم بعد ذلك فى مدخل الوادى الكبير ، ليقوم بغارة كبيرة على أشبيلية ونواحيها . وكانت أشبيلية إذ ذاك ثانى مدائن الأندلس الإسلامى ، وكان إقليمها من أعمر الأقاليم وأكثرها قرى ومزارع .

وتقوم فى مدخل الوادى الكبير جزيرتان إحداهما كبيرة تسمى « بالجزيرة الكبيرة » *Isla Mayor* ، والثانية « بالجزيرة الصغيرة » *Isla menor* ، وكانت تسمى كابتل *Captel* وعرّب المسلمون اسمها إلى « قبطيل » . وكانت هذه الجزائر الواقعة فى مصبات الأنهار خير ما يجتذب قراصنة النورمانيين إلى دخولها والإيغال فى البلاد عن طريق مجاريها ، وكانت « قبطيل » فى ذلك الحين عامرة بمراعى الماشية والخيل والمزارع ، فعجل النورمانيون بالنزول إليها فى ١٢ محرم سنة ٢٣٠ هـ — ٢٩ سبتمبر ٨٤٤ م ، وتحصنوا بها وأقاموا

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ؛ ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل (أورد هذا النص زاييل) ص ٢١ . ويؤيد ذلك ابن خلدون (زاييل ص : ٣٤ وما بعدها) ، والنويرى (نفس المرجع ص : ٣٢ — ٣٣) .

بها معسكراً[١] . وصعدت أربع من سفنهم فى النهر إلى مسافة أربعة أميال حتى أدركت قرية « قورية *Coria del Ria* » ، فأغاروا عليها ونهبوها ، وقتلوا من أهلها عدداً كبيراً .

وتوالت الأخبار بذلك إلى عبد الرحمن فعجل بالعمل ، فاستنفر الناس من قرطبة ، وقدم على الخيل عيسى بن شُهيد الحاجب ، فأسرع نحو إشبيلية ، وأردفه عبد الرحمن بخيل أخرى يقودها ثلاثة من أكبر قواده ، هم عبد الله بن كُليب ومحمد بن رستم[٢] وعبد الواحد الإسكندرانى ، فتلاحقوا بعيسى بن شهيد فى معسكره « بالشَّرَف » ، وهو حافة الهضبة المشرفة على أشبيلية وواديها ؛ ولم تحدد لنا المراجع المكان الذى عسكر فيه ابن شهيد بأكثر من ذلك . ولم يكتف عبد الرحمن بهذا ؛ بل أردف هذه القوات بأرسال من الرجالة . ثم تقدمت القوات إلى « قرمونة » ، فعسكرت بها استعداداً للقاء .

وكان النورمانيون قد تقدموا فى أثناء ذلك من « قبطيل » نحو الشمال ، وتجمعت سفنهم واخترقت البلد فى النهر ، وريع الأشبيليون حين رأوا سفنهم بأشرعتها السود تشق بلدهم ، وحاول بعضهم أن ينظم المقاومة فلم يستطع ، وأسرع عامل البلد ففر إلى قرمونة ، وأرسل الأشبيليون بضع مراكب لتلقى مراكب النورمانيين وتوقف تقدمها ، فاستقبلها هؤلاء بوابل من الأسهم النارية ، فلم تلبث النار أن اشتعلت بأشرعتها ، واحترقت المراكب . وعلى إثر هذه الهزيمة تسارع الناس إلى الهرب من البلد ، ونزلها المجوس ، وأخذوا ينهبونها نهباً ذريعاً ، وفتكوا بمن وجدوه من أهلها ، ومضوا على ذلك أسبوعاً كاملا ، لم يغادر النورمانيون خلاله طفلا أو شيخاً إلا قتلوه ، وأسروا عدداً عظيما حملوه فى السفن . فلما امتلأت أيديهم من الغنائم وسفنهم من الأسرى تحركوا بمراكبهم عائدين نحو « قبطيل » ، ليضعوا غنائمهم وأسراهم بها فى مأمن ،

---

(١) جاء فى « الروض المعطار » تحت مادة « قبطيل » : « بالأندلس ؛ مفرغ وادى إشبيلية فى البحر ويعرف أيضاً بالعسكر ، لأنه موضع عسكر فيه المجوس واحتفروا حوله خندقاً أثره باق إلى الآن » .

عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٥٠ . وقد كتب « الروض » حوالى ٨٦٦ هـ ، مما يدل على أن آثار المجوس كانت باقية فى الأندلس إلى ذلك الحين .

(٢) أورد ابن عذارى اسم هذا القائد : ابن وسيم ، وقد صححتها من القطعة الصغيرة من « المقتبس » لابن حيان التى بين أيدينا .

فلما تم لهم ذلك عادوا إلى البلد ، فوجدوه قاعاً صفصفاً لا يعمره أحد ، خلا جماعة من أتقياء الشيوخ لجأوا إلى مسجد فقتلوهم ، فسمى هذا المسجد من ذلك الحين « مسجد الشهداء » .

ولما كان معظم رجالهم قد ركبوا من الخيل التى غنموها من قبطيل ، فقد نظموا أنفسهم فرقاً من الخيالة ، وأخذوا يغيرون على ما جاور أشبيلية من النواحى ، ولم يستطيعوا التصعيد فى النهر نحو قرطبة ، لأن التيار فيما يليها عنيف لا يصعد فيه بسهولة[١] .

وقد وصف لنا ابن القوطية ما فعله المجوس بجامع أشبيلية وصفاً أسطورياً بعض الشيء ، ولكنه يصور لنا أفاعيلهم فى البلد و « الوقع » الذى خلفوه فى نفوس أهل الأندلس ، قال : « وكان عبد الرحمن بن الحكم يرى فى نومه عند تمام جامع أشبيلية أنه يدخاله فيجد النبى صلى الله عليه وسلم ميتاً مسجى فى قبلته ، فانتبه مغموماً ، فسأل أهل العبارة عن ذلك ، فقالوا : هذا موضع يموت دينه . فحدث فيه إثر ذلك ما كان من غلبة المجوس على المدينة ... وحدّث غير واحد من شيوخ أشبيلية أنهم كانوا يحمون سهامهم فى النار ، ويرمون بها سماء المسجد ، فكان إذا احترق ما حول لسهام سقط ، وآثار السهام فى سمائه إلى وقتنا هذا ظاهرة ، فلما يئسوا من إحراقه جمعوا الخشب والحضر فى أحد البلاطات ليدخلوا النار وتتصل بالسقف ، فخرج إليهم من جانب المحراب فتى فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام ، حتى حدثت الوقيعة فيهم . وكان المجوس يصفون الحدَث اخرج لهم بجمال تام[٢] » .

وبلغ عبد الرحمن وقوف قواته عند « قرمونة » وتقاعسهم عن لقاء النورمانيين ، فأرسل فتاه « نصراً » فى قوات جديدة أقبلت من الكور ، وتجمعت فى قرطبة فى ذلك الحين[٣] ، وجعل إليه القيادة . فتقدم « نصر » حتى لحق ببقية القواد عند « الشَّرَف » ، وأقاموا جميعاً عند « قرمونة » لا يستطيعون أمام النورمانيين شيئاً .

---

(١) أكملت المعلومات التى تقدمها المراجع التى بين أيدينا بالتفاصيل الواردة فى مخطوطة « مقتبس » ابن حيان ؛ ومن :

Lévi Provençal: Hist. de l'Esp. Mus. 1, pp. 185 sqq.

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ح ٢ ص ٨٩ .

ولعل السبب فى عجز قوات عبد الرحمن عن لقاء هؤلاء القراصنة هو هذا الرعب الشامل الذى نشروه فى غرب الأندلس كله ، بسبب ما أنزلوه بأشبيلية من التخريب والقتل من ناحية ، وبسبب أسلوبهم فى مغاورة القرى والبلاد من ناحية أخرى ؛ فقد كانوا يرسلون قطعاً من الخيل فى غارات سريعة ، تضرب ضربات قاسية ، وتقتل وتنهب وتسبى وتحرق ، ثم تعود قبل أن يثوب للناس رأى فى النهوض إليهم . ثم إن استعمالهم النار فى الحرب روع الأندلسيين ترويعاً بالغاً ، فقد كانوا يرمون أسهماً من نار تنشر اللهب فى كل ناحية. وقد روعوا نواحى «الوادى الكبير » ، وأنزلوا بأهله فظائع شديدة . ولم تعرف القوات الإسلامية كيف تلاقى هذه الجماعات من القراصنة الذين يسيطرون على مدخل النهر وشواطئه ، ويشنون الغارات الخاطفة ثم يعودون إلى معسكرهم على الشاطىء أو فى الجزر ، فوقفوا فى « قرمونة » يتأملون هذه الكارثة دون أن يعرفوا السبيل إلى دفعها .

وبحث عبد الرحمن عن قوات جديدة يرسلها ، فلم يجد إلا قوات الثغر الأعلى التابعة لموسى بن قَسِيّ . وموسى هذا هو موسى بن موسى بن فرتون Fortunio ، ثانى الأمراء المسلمين من أسرة بنى قسى القوطية التى اعتنقت الإسلام ودخلت فى ولاء الخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان موسى فى أول أمره عاملا على « تُطِيلة » Tudela ، وكان يتولى قيادة قوات عبد الرحمن الأوسط الذاهبة إلى الحرب فى بلاد إفرنجة ، مما يلى جبال البرتات (التى تسمى خطأ جبال البرانس) ، ثم اختلف مع أحد رجال عبد الرحمن ، وخلع الطاعة ، وحالف جاره ملك نَبَرّه (نڤار) ، واشترك معه فى حرب جيوش الإمارة الأموية ، وظل على هذا العصيان ، حتى وجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى مصالحته ، ليستعين به على حرب النورمان[1] .

وبعث عبد الرحمن إلى موسى يطلب نجدته ، واضطر إلى التلطف معه «وتذكيره إياه بولائه للوليد بن عبدالملك ، وإسلام جده على يديه ، فلان

---

(١) انظر : سبستيان السلمنقى ، فقرة ٢٥ ــ ٢٦ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ ــ ٦٤ .
Dozy : Recherches, I, p. 211 sqq.

بعض الأين وقدم فى عدد كثيف (١) » .

فلما وصل موسى بن قسى بمن معه من قوات أهل « الثغر الأعلى » ، لم يشأ أن ينضم إلى قوات الإمارة وأهل الكور التى كانت معسكرة بناحية « قرمونة » ، فعسكر بمن معه على مقربة منها ؛ ولعل السبب فى ذلك هو أنه لم يرضَ أن يكون تحت راية « نصر » الفتى . ثم اجتمع هو ورجاله ببقية القواد الآخرين وسألوهم عن حركة القوم ، فأعلموهم أنها تخرج لهم فى كل يوم سرايا إلى جهة فِرِّيش (٢) ولَقَنْت (٣) ، وإلى جهة قرطبة ومَوْرُور (Moron) ؛ فسألوا عن مكمن بمكان يمكن (٤) أن يستتر فيه بقرب حاضرة إشبيلية ، فدُلوا على قرية كَنْتُش مَعافِر (Quintos) (٥) التى بقبلى إشبيلية ، فخرجوا إليها فى جوف الليل ، ومكنوا (يريد كمنوا) فيها ، وبها كنيسة أولية صعَّدوا فيها « نظوراً » فى أعلاها على رأسه حزمة حطب . فلما انبلج الصبح خرجت لهم يد (أى طابور سريع الحركة) فيها ستة عشر ألفاً منهم يريدون جانب « مورور » ، فلما قابلوا القرية أشار إليهم (أى إلى المسلمين الكامنين) الناظور ، فتوقفوا عن الخروج إليهم حتى أبعدوا ، فلما أبعدوا قطعوا بينهم وبين المدينة ، وحمل السيف على جميعهم ، ثم تقدم الوزراء فدخلوا إشبيلية ، وألفوا العامل فيها محصوراً فى قصبتها ، فخرج إليهم وتراجع الناس (٦) » ، وبهذا استطاع موسى بن موسى بن قسى أن يقضى على هذه القوة النورمانية التى ذهبت نحو مورور ، ويبدو أنها

---

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .

(٢) ذكرها الإدريسى (انظر طبعة دوزى ، ص ٢٠٧) ، وهى فى منتصف المسافة تقريباً بين إشبيلية وقرطبة ، واسمها هنا معرب عن اللاتينية Firrix .

(٣) ليس المقصود هنا لقنت Alicante الميناء المعروف بشرق الأندلس ، بل Lecanto التى تسمى أيضاً Fuente de Cantos فى أقليم إشبيلية .

(٤) فى الأصل: « بمكان أن . . »

(٥) كنتش تعريب لاسمها باللاتينية Cuintos ، وقد رسمها عبد المنعم الحميرى قنتش بالقاف ؛ ومعافر نسبة إلى القبيلة العربية المعروفة .

(٦) ابن القوطية ، افتتاح ٦٣ — ٦٤ ، وهو يذكر أن عامل إشبيلية كان محاصراً فى قصبتها ، بخلاف ما يذكره ابن حيان من أن هذا العامل فر من إشبيلية إلى قرمونة لأول نزول النورمان فيها على ما ذكرناه . انظر :
Cf, Lévi-Provençal: Hist. de l'Espagne Musulmane, I, p. 154.

كانت أكبر السرايا النورمانية ، لأن مركزهم فى ناحية إشبيلية تأثر تأثراً ظاهراً بعد هزيمتها . وانتهز القواد فرصة هذا النصر وما أحدثه من الذعر بين القرصان فأسرعوا إلى إشبيلية ودخلوها وخلصوا عاملها ، وأخذ أهلها الذين كانوا قد فروا منها يعودون إليها .

أما السريتان النورمانيتان الأخريان اللتان اتجهت أولاهما نحو « لقنت » والثانية نحو قرطبة ، فقد بلغت الثانية قرية « بنى الليث » وعبثت بها .

وكان النورماند قد فارقوا إشبيلية عند دخول المسلمين إياها فلم يبق فيها إلا قوة صغيرة منهم . فلما بلغتهم أنباء هزيمة البعث الذى كان قد سار نحو « مورور » ، وأبصروا خيل المسلمين تدخل إشبيلية أدركهم الخوف ، فتركوا معسكرهم ، وصعدوا إلى مراكبهم التى كانت راسية فى مدخل « الوادى الكبير » عند جزيرة قبطيل ، وهناك أمنوا على أنفسهم من أن يقضى عليهم الأندلسيون قضاء مبرماً .

واستعدوا للدفاع عن أنفسهم بظواهر أشبيلية وما يليها من النواحى إلى الجنوب ، ومضت جماعة منهم إلى « قورية » Coria del Rio على اثنى عشر ميلا من إشبيلية ، حيث قتلوا عدداً عظيما من أهلها . واتجهت جماعة ثالثة منهم نحو طَبْلاطه Tablada على ميلين من إشبيلية[1] ، وظهروا بالغداة بموضع يعرف « بالفخارين » ، وأقبلت قوات إسلامية نحوهم فصعدوا إلى سفنهم . فلما رأوا أن القوات الأندلسية تتبعهم وتضيق عليهم الخناق نزلوا إلى البر واعتركوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى[2] » . ثم عاد المجوس إلى مراكبهم ، وسارت جماعة منهم إلى

---

(١) طلياطه Tabliata . هكذا رسمها ابن عذارى وابن الأثير والنويرى ، وزاد الأول أن المسافة بينها وبين إشبيلية اثنا عشر ميلا ، كما يقرر ذلك ابن عذارى وهو تحديد غير دقيق، لأنها أبعد من ذلك ، وهى على نهير صغير غربى الوادى الكبير (انظر مادة طلياطة فى الروض المعطار، ص ١٢٨) . وقد ذكرها ابن حيان فى المقتبس طبلاطه Tablada على هذه الصورة فى تاريخه ، وطبلاطه هذه تقع فعلا على اثنى عشر ميلا شمالى اشبيلية ، ولهذا عدلت إلى « طبلاته » على الرغم من أن بقية النصوص التى بين أيدينا تكتبها « طلياطة » فى منتهى الوضوح . وقد فضل ليفى پروفنسال صيغة ابن حيان أيضاً
Cf: Lévi-Provençal, op. cit. I. p. 154.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

« شذونة » Medina Sidonia ، فنزلوها ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها ، وخرجت سرية منهم وطرقت قادش Càdis

وتسارعت قوات المسلمين تلاحقهم ، لتحول بينهم وبين الاستمرار فى الأذى ، وكانت جماعات منهم لا تزال تسيطر على الوادى الكبير عند إشبيلية ، وكان معسكرهم فى قبطيل حصيناً مليئاً بالغنائم والأسرى ، ولم يكونوا ينتظرون إلا أن يتراخى المسلمون فى تعقب آثارهم لكى يعودوا إلى التصيد فى الوادى الكبير ليصلوا إلى قرطبة وإقليمها العامر بالقرى والمزارع والعمران .

ورأى المسلمون أن خير وسيلة يقاومونهم بها هى أن ينصبوا لهم المجانيق على ضفتى النهر ، لترجم سفنهم بالحجارة إذا أرادت السير ؛ وأخذت هذه المجانيق ترمى مراكب المجوس بالحجارة . وتوافت الأمداد من قرطبة ، وتشجع المسلمون ، وشددوا التضييق على مراكب المجوس المحصورة فى النهر ، وأخذت مراكبهم تتراجع نحو الجنوب فى اتجاه إشبيلية ، والمسلمون رصد لها على شطى النهر يرمونها بالحجارة والنار .

وعول القائد محمد بن رستم على أن يرغم المجوس على النزول إلى البر وملاقاة المسلمين فى موقعة برية فاصلة ، فشدد الرمى بالمجانيق عليهم ، وأغرق كثيراً من سفنهم وقتل منهم نحو خمسمائة . فلم يسع المجوس إلا النزول إلى البر ، ودارت المعركة الحاسمة بينهم وبين المسلمين عند « طبلاطة » ، يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ — ١١ نوفمبر ٨٤٤ م ، « قتل فيها منهم خلق كثير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً ، وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير ، ورفع منهم فى جذوع النخل التى كانت بها ، وركب سائرهم مراكبهم[١] » .

وعلى أثر هذه الهزيمة الشديدة عول المجوس على اختراق إشبيلية فى النهر والتراجع إلى قبطيل . وتجشموا فى ذلك عناء عظيما ، حتى إذا بلغوا « قلعة الزعواق » شمالى إشبيلية توافت إليهم فلول إخوانهم الذين كانوا قد تفرقوا فى غارات على النواحى ، فأصعدوهم معهم فى السفن .

و « اجتهد المسلمون فى حربهم ، ومضوا يناهشونهم ويرمونهم بالحجارة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٠

والأوظاف ، فلما صاروا تحت إشبيلية بميل صاحوا إلى الناس : إن أحببتم الفداء فكفوا عنا ! فكُفَّ عنهم ، وأباحوا الفداء فيمن كان عندهم من الأسارى ، ففدى الأكثر منهم ، ولم يأخذوا فى فدائهم ذهبا ولا فضة ، إنما أخذوا الثياب والمأكول ، وانصرفوا عن إشبيلية[1] » .

وكانت جماعة منهم قد انقطعت عن البقية ، فلم تستطع اللحاق بها فشردت إلى ناحية لَبْلَة Niebla ، ومنها إلى الأشبونة ، حيث ركبوا السفن ، « وانقطع خبرهم » كما يقول ابن عذارى[2] .

ولم تطل غارتهم تلك على غرب الأندلس من أشبونة إلى إشبيلية ونواحيها إلا نحو شهرين[3] ، إذ بدأت فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ ، وانتهت فى أواخر صفر من نفس السنة (سبتمبر - أكتوبر ٨٤٤ م) . فَجأَت الأندلس على غرة وعلى غير أهبة لحرب البحر . ولم يكن أهله ليتوقعوا أى هجوم من هذه الناحية الغربية ، فما هو إلا أن وطئ النورمان البلاد ، وأوغلوا فى ناحية الأشبونة ، حتى نهضت لحربهم الإمارة الأموية فى حزم وكفاية يدلان على انتظام أمورها وقدرة أميرها عبد الرحمن ورجاله على تلافى الأخطار من أية ناحية . فقد بدأوا فأرسلوا القوات القائمة فى قرطبة ، فلما استبانوا عدم كفايتها استدعوا قوات الكور وأرسلوها إلى ناحية إشبيلية ، وكان العدو قد انتقل إليها . فلما رأوا أن القواد الذين أرسلوا وقفوا أمام النورمانيين موقف المتحير الذى لا يعرف سبيل العمل ، عرفوا أنه ليس للأمر إلا رجال الثغر الأعلى ، ممن دربوا على حرب النصارى و « المجوس » ، وتعلموا كيف يلاقون السرايا الخاطفة فى حرب العصابات الجبلية التى كانت نارها لا تخمد بين أهل الثغر الإسلامى الأعلى ، مما يلى سرقسطه إلى الشمال ، ومن يجاورهم من أمراء النصارى . وقد كان عبد الرحمن ورجاله على الحق فيما ارتأوا ، لأن موسى بن موسى بن قسى لم يكد يصل إلى ناحية « قرمونة » حتى سأل عن اتجاهات سرايا النورمانيين ، وترصد لإحداها ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٩٠ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) يذكر ابن عذارى (نفس الصفحة) أنهم أقاموا فى ناحية أشبيلية اثنين وأربعين يوماً .

و « قتالها » كما يقول ابن القوطية . وأتاح ابن قسى بذلك الفرصة لقوات الإمارة ، فدخلت إشبيلية ، وطردت النورمان منها ، وخلصت عامل البلد من الحصار الذى كان يعانيه . وكانت هذه الضربة التى وفق إليها موسى بن موسى ابن قسى كافية لإشاعة الاضطراب فى خطط النورمانيين وإرغامهم على الانقلاب من الهجوم إلى الدفاع ، فإذا تم هذا فقد توالى الهجوم عليهم من كل ناحية ، وتفطن الأندلسيون إلى إمكان محاربتهم بنصب المجانيق على شواطىء النهر وقذف مراكبهم بالحجارة والنار ، وما زالوا بهم حتى ألجأوهم إلى النزول إلى البر وملاقاتهم فى موقعة برية حاسمة عند طبلاطة ، انهزم النورمانيون فيها انهزاماً كاملا . واضطروا إلى طلب الصلح ومغادرة البلاد .

ولو لم ينهض الأندلسيون للقائهم بهذه النجدة لأقاموا فى البلاد واستوطنوها — أو بعض أجزائها — ، كما فعلوا فى إنجلترا وإيرلندا وأجزاء كثيرة من دولة الفرنجة وسواحل البحر البلطى ونواحى روسيا ، وكما سيفعلون بعد ذلك فى ناحية إسلامية أخرى لم تستطع رد عاديتهم ، وهى صقلية التى استقروا فيها وأزالوا دولة الإسلام منها ، وأنشأوا بها دولة نورمانية شاملة جنوبى إيطاليا خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) .

ولو جاز لنا أن نتخذ مقاومة النورمان مقياساً لقوة دول ذلك العصر من الناحية الحربية ، لاستطعنا أن نقرر أن دولة الإسلام فى الأندلس كانت أقوى الدول الأوربية فى ذلك الحين ، وأكثرها همة ونشاطاً وكفاية . وإذا ذكرنا ما كانت الخلافة العباسية تعانيه إذذاك من الاضطراب والفوضى ، بسبب ضعف الخلفاء وتواتر وثوب حكام النواحى وثورة الزنج ، وما كانت الدولة البيزنطية تعانيه إذذاك قبيل قيام الأسرة السورية (الإيسورية) ، لاستطعنا القول بأن دولة الأمويين فى الأندلس كانت أقوى دول العالم المعروفة إذذاك ، وأكثرها كفاية من الناحية الحربية ، فضلا عما امتازت به على غيرها من النظام الإدارى والنهوض الحضارى الذى أشرنا إليه ، وهذه كلها حقائق ذات أهمية لا تخفى قيمتها فى تاريخ الحضارة البشرية .

* * *

لم ينته أمر هذه الغارة النورمانية بمغادرة المجوس الأندلس وعودتهم إلى بلادهم ، بل خلفت فى تاريخ الأندلس الإسلامى آثاراً بعيدة المدى ، أولها أنها نبهت أذهان أمراء قرطبة إلى ضعف سواحلهم الغربية والجنوبية الغربية وتعرضها للغزوات من ناحية البحر ، فشرعوا فى تحصين بلاد هذه النواحى وتأمينها من كل مفاجأة ، وأخذوا ينشئون الرباطات على الساحل من « أشبونة » إلى « أرقُش » . وتسارع الأندلسيون ، بما عرف فيهم من حمية للدين وإقبال على الجهاد إلى هذه الرباطات وعمروها ، وقامت — من ذلك الحين — على هذا الساحل كله الرباطات يقيم فيها المرابطون المحتسبون ، والمحارس يقيم فيها الحراس يراقبون الشواطىء(١) .

واهتم عبد الرحمن ببناء سور إشبيلية ، ولم يكن لها سور قبل ذلك(٢) ، فأمن البلد بفضل هذا الإجراء . وسنرى أن النورمانيين لن يبلغوا منها مبلغاً كبيراً حينما يفجأونها بعد ذلك بعشر سنوات ، فى إمارة محمد بن عبد الرحمن .

وثانى هذه الآثار هو ميلاد البحرية الأندلسية ، وهو حادث عظيم الأثر فى ذاته . ويقول ابن القوطية بصدد البدء فى إنشاء هذه القوة البحرية : « واستعد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فأمر بإقامة دار صناعة بإشبيلية ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط . فلما قدموا القدمة الثانية سنة ٢٤٤ هـ ، فى أيام الأمير محمد ، تلقوا فى مدخل نهر إشبيلية فى البحر ، فهزموا فحرقت لهم مراكب ، فانصرفوا(٣) » وهى عبارة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تعين ميلاد البحرية الرسمية الحربية لإمارة قرطبة ، وتبين لنا أن عبد الرحمن جمع لها الرجال من أهل الشواطىء ، وأغدق عليهم الأموال ، وأنشأ دور الصناعة وأخذ يبنى السفن ويسلحها بما ينبغى لها من الآلات والنفط . وقد تم إنشاء هذه البحرية فى زمن قصير جداً ، وسنرى أثرها عند عودة النورمانيين إلى الأندلس ، بل سيكون ميلادها بدءاً لسيطرة الأندلس الإسلامى على غرب البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) انظر Lévi-Provençal: op. cit. I, p. 157. على أنه لم يذكر مرجعه عن نشأة هذه الرباطات فى ذلك الحين ، والغالب أنها من « مقتبس » ابن حيان .

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص٦٣ .

(٣) ابن القوطية ، افتتاح ، ص٦٧ ، وكذلك Lévi-Provençal, op. cit. I, p. 157.

وسيبدأ هذا الأسطول نشر سيادته بغزو جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة ، بعد ذلك بسنوات قلائل ؛ وسيلعب هذا الأسطول الأندلسى دوراً خطيراً فى تاريخ الأندلس الإسلامى ، وفى تاريخ البحر الأبيض المتوسط كله ، لأن هذه النواة التى كونها عبد الرحمن لم تلبث أن تمت على عجل بفضل إقبال الأندلسيين من أهل الشواطىء على العمل فيها ، فما هى إلا سنوات حتى نشأت دار صناعة جديدة أخرى فى قرمونة[1] ، وأعقبتها دور جديدة فى لقنت ومرسية وبلنسية . وكثرت المراكب الحربية وأصبحت لها إدارة خاصة وقواد مختصون بشؤونها ، ولم تلبث أن سيطرت على غرب البحر الأبيض المتوسط حتى جزيرة صقلية وسواحل تونس . وأكمل المسلمون بذلك السيطرة على البحر الأبيض المتوسط كله شرقاً وغرباً ، وهذه فى ذاتها حقيقة تاريخية على أعظم جانب من الأهمية ، وسيكون هذا الأسطول عماد خلفاء بنى أمية فى السيطرة على المغرب ومناهضة الفاطميين . وبعبارة أخرى : كانت غارة المجوس هذه ميلاداً لقوة إسلامية كبرى ، وإرهاصا بحادث تاريخى بعيد الأثر .

٤

سفارة يحيى بن حكم الغزال
إلى ملك النورمانيين

وكأنما أراد عبد الرحمن أن يؤمن بلاده من نوازل هؤلاء القراصنة العتاة ، فلم يكد يلمس عند بعض رجالهم رغبة فى الصلح والمهادنة حتى قرر إرسال سفارة إلى ملكهم . ومراجعنا الإسلامية غامضة جداً فيما يتصل بالأسباب التى حدت بعبد الرحمن إلى إرسال هذه السفارة ، ويفهم من كلامها إجمالا أن ملك النورمانيين أرسل رسلا يطلب الصلح ، فيقول ابن دحية فى « المطرب » : « ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس بطلب الصلح ، بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول

(١) عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٩٢ (مادة قرمونه) .

فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك ، فأمر الغزال أن يمشى فى رسالته إلى رسل ملكهم ...[١] » . ولسنا نستطيع تعرف الأسباب التى دعت ملك النورمانيين إلى مراسلة عبد الرحمن فى الصلح ، لأنه كان المعتدى ، ولأن بلاده لم تكن لتخشى شيئاً من ناحية الأندلس . ولكننا نعرف أن ابن دحية يأخذ أخباره — فى هذا الجزء على الخصوص — عن تاريخ لتمام بن علقمة الذى عاصر هذه الأحداث ، مما يجعلنا أميل إلى قبول كلامه فى هذا الموضوع ، وإن كان فى حاجة إلى ما يؤيده من المراجع الأخرى .

وربما كان هذا هو الذى حدا بليڤى بروڤنسال إلى إنكار موضوع هذه السفارة جملة ، لأنه لم يجد لها ذكراً مفصلا فى القطعة التى بين أيدينا من « مقتبس » ابن حيان متعلقة بتاريخ عبد الرحمن الأوسط ، وإليك رأيه فى موضوع هذه السفارة :

قال بعد أن ذكر تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى تيوفيل إمبراطور القسطنطينية : « ويذهب بعض مؤرخى العصور المتأخرة من المسلمين إلى أن يحيى الغزال هذا قد كلفه عبد الرحمن الأوسط بأن يسير فى سفارة جديدة مع زميله الذى صاحبه فى سفارته إلى تيوفيل — إلى ملك النورمانيين ، وذلك فى سنة من السنوات التى أعقبت عودته من القسطنطينية ، لكى يحول بين النورمانيين وبين أية محاولة جديدة للنزول فى الأندلس . وهم يزعمون أن الشاعر ورفيقه قد قاما بمهمتهما فى شمال أوربا بعد رحلة مليئة بالمخاطر ، وعادا إلى قرطبة بعد تسعة أشهر . وهذا الموضوع كله إن هو إلا أسطورة مخترعة من أولها الى آخرها ، وقصة هذه السفارة المزعومة إلى اسكنديناوة قد اخترعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر (الميلاديين) ، وتبدو لنا مشكوكاً فى صحتها شكاً شديداً إذا كلفنا أنفسنا عناء بحثها فى عناية : إن العناصر — العجيبة بعض الشىء — التى تتكون منها ، مستعار معظمها من فقرات سجلت منذ القرن العاشر من رحلة يحيى الغزال إلى الإمبراطورية البيزنطية . لقد كان مسلك الإمبراطور البيزنطى حيال قرطبة وغارة النورمانيين الجريئة على إسبانيا سبباً فى ذيوع تفاصيل خيالية معينة ، وانتهى

---

(١) ابن دحية ، المطرب ، ص ١٠٥ ب .
ونقلها المقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٦٣٠ .

الحادثان بالاختلاط والامتزاج فى أذهان الشعب فى الأندلس ، ونشأت عنهما أسطورة مشتركة أخذت تشوّه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً مع الزمن ...(١) » .

وواضح أن الأساس الذى بنى عليه پروڤنسال هذا الرأى هو أنه لم يجد فيما بين يديه من روايات ابن حيان وغيره من مؤرخينا شيئاً ذا بال عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ، وثانياً أنه وجد أن أهم مصدر لأخبارها هو كتاب « المطرب » لابن دحية الإشبيلى ، وهو من أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . فأما عدم ذكر ابن حيان إياها فلا يقوم حجة ، فقد أغفل ابن حيان أشياء كثيرة أثبتها غيره ، وأثبت كذلك أشياء أخرى كثيرة من الأساطير الشعبية التى انتشرت بين الناس فى عصره(٢) . ولو كان إغفال أحد كبار مؤرخينا لذكر حادث من الأحداث يكفى لنفيه ، لكان ولا بد أن ننفى حوادث إغارات النورمانيين على الأندلس جملة ، لأن صاحب « الأخبار المجموعة » لم يشر إليها بحرف واحد . ولو كانت سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين أسطورة شعبية أخذت تنمو منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، لأشار إليها ابن حيان كما أشار إلى غيرها من الوقائع الخيالية الأخرى التى أخذ أخبارها من أفواه معاصريه . ثم إن علاقات الأندلس الدبلوماسية مع النورمانيين انقطعت بعد ذلك بسنوات قلائل ، لتحل محلها الحرب والعداوة من جديد ، بينما اتصلت علائق الأندلس الدبلوماسية ببيزنطة وحفلت سجلات ديوان قرطبة بأوراقها ، فوجد ابن حيان ما ينقله عنها ، فى حين لم يجد فى السجلات الرسمية عن علاقات أمراء قرطبة بالمجوس إلا أخبار الحرب والقتال فأثبتها .

ولو أن سفارة يحيى الغزال إلى بلاط ملك النورمانيين كانت مجرد أسطورة نشأت عن سفارته إلى بلاط بيزنطة ، لوجدنا أبا الخطاب بن دحية والمقرى يطيلان الحديث عن الأولى ويوجزان فى الثانية . ولكننا نجد العكس تماماً ، فهما لا يذكران سفارة الغزال إلى بيزنطة إلا فى سطور ، فى حين أنهما يتحدثان صفحات كثيرة عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ؛ ولا يفسر هذا

---

(١) انظر Lévi-Provençal, op. cit. 1, 177-178.

(٢) انظر الجزء الثالث من ابن عذارى — طبعة ليفى پرفنسال .

إلا بأن السفارتين صحيحتان . ثم ما هو الرأى فى هذه الأشعار التى تنسب إلى الغزال ، وفيها ذكر « تود » الأميرة النورمانية ذكراً صريحا ؟ لا يمكننا القول بأنها قيلت أول الأمر فى « تيودورا » زوج الإمبراطور تيوفيل ، ثم وجهها الناس إلى « تود » بعد ذلك . وما القول فى هذه التفاصيل المادية التى يذكرها ابن دحية عن الأحوال فى بلاد النورمانيين ، وهى تفاصيل يؤيد صحتها العارفون بتاريخ النورمانيين القدماء ؟ وماذا كان يدعو الناس إلى تكلف تحديد طريق عودة الغزال عن طريق شنت ياقوب ، وهو طريق لم يكن مألوفاً لرحالة المسلمين ومسافريهم ؟ ثم ما الرأى فى أن الذى رافق يحيى الغزال إلى بلاد النورمانيين لم يكن هو « يحيى صاحب المنيقلة » الذى صاحبه إلى القسطنطينية ، بل رجل يسمى يحيى بن حبيب ، ولو كان هو صاحب المنيقلة لأشار إلى ذلك أبو الخطاب ، وقد كان « المقتبس » بين يديه ينقل منه ويراجعه ، كما هو ثابت من كلامه[١] ؟ .

لا نستطيع إذن أن نحكم على سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين بأنها مجرد أسطورة ، بل لا مناص لنا من قبولها كحقيقة تاريخية ، وهذا لا يمنع من الظن بأن بعض تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاط بيزنطة قد اختلطت بها ، وذلك أمر لا يقلل من أهميتها على أى حال .

* * *

فإذا انتهينا إلى ذلك استطعنا أن نمضى فى دراسة تفاصيل رحلة الغزال إلى ملك النورمانيين ، ونحب أن نضيف إلى ماقلناه فى هذا المقام شيئاً : هو أن هوريك ملك النورمان كان متصل العلاقات بمن عاصره من ملوك الفرنجة ، وكانت رسله تتردد إليهم بالكتب كما يقول « ألن ماور » فى مقاله الذى أشرنا إليه مراراً ، فتوجيهه الرسل إلى عبد الرحمن ليس بالأمر الغريب الذى ينكره الواقع . وما دام الرجل قد أرسل كتباً وسفارات إلى جيرانه ملوك الفرنجة ، فلماذا نستبعد أن يكون قد وجه رسلا إلى عبد الرحمن الأوسط أعظم معاصريه وأقواهم ؟ وليس بمستبعد أن يكون دافعه إليه مجرد

(١) راجع تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى بلاط الإمبراطور تيوفيل فى :
Lévi Provençal: Un échange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IX. siècle. dans: Byzantion XII, 1937, p. 1-24.

الرغبة فى الحصول على بعض طرف الأندلس من الثياب والآنية ، وقد رأينا النورمانيين حريصين على الحصول عليها ، وكان فى الأندلس فى ذلك الحين من طرف الصناعة ولطائف الثياب والخيرات ما كان حرياً بأن يدفع ملك النورمانيين إلى الرغبة فى الحصول على بعضها ، وقد بعث إليه عبد الرحمن بشيء كثير منها ، فسر بها سروراً عظيما كما سنرى ؛ ونحن نعرف ما كانت عليه بلادهم إذذاك من قلة الخيرات وندرة المصنوعات ... ثم إنه جرى على أن يكتب إلى جيرانه بعد الغزوات ، ليبرئ نفسه من تبعاتها قائلا إن الذين قاموا بها كانوا جماعة من الخارجين على طاعته، فلماذا نستبعد إرساله نفراً من رجاله إلى عبد الرحمن، ليبرئ نفسه من أوزار ما فعل القرصان ببلاد الأندلس؟

ولا شك أن عبد الرحمن تلقى رسل ملك النورمان بسرور عظيم ، لأن الأندلس لقى من غاراتهم بلاء شديداً ، ولم يكن أحب إلى أمير مسالم كعبد الرحمن من اتصال سلمى بملكهم ، تكون نتيجته كفّ أذاهم وعدوانهم عن المسلمين . فلم يكتف بحسن استقبال رسل ملكهم ، بل رأى أن يسير إليه رجلا ذكياً حاضر البديهة لطيف المدخل كيحيى الغزال ، ليتعرف أمورهم ويكسب ودهم ، ويأتيه من خبرهم بالنبأ اليقين . ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد عرف عداءهم مع الفرنجة وحروبهم معهم ، فأراد أن يجتذبهم إلى جانبه ، وقد كان الفرنجة قد نهضوا على أيامه يحاولون التوغل فى الأندلس وإحياء « الثغر الإسبانى » فى ناحية برشلونة . ولو جاز لنا أن نأخذ بحكم المنطق فى الحقائق التاريخية لقلنا إن دولة الإسلام فى الأندلس كانت أحوج إلى سفارة إلى ملك النورمانيين منها إلى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة ، لأن الأول كان عدواً للأندلس جديراً بأن يتقى شره بالسفارات والألطاف ، فى حين لم يكن الثانى غير إمبراطور بعيد لا تربطه بدولة الإسلام فى الأندلس أية علاقة حقيقية (١) .

---

(١) والأستاذ ليفى پروفنسال نفسه يتساءل عن الدوافع التى دفعت الإمبراطور تيوفيل إلى إرسال سفارته إلى عبد الرحمن الأوسط ، على قلة ما كان يربطهما من المنافع الحقيقية ، ويناقش هذه الفكرة مناقشة طيبة ، ولكنه لم يستطع أن ينكر حدوث هذه السفارة ، لأن مصادرها العربية بين يديه لا تحتمل الشك.

Cf. Lévi-Provençal: Cordoue et Byzance au IX. siècle dans: Islam d'Occident... pp. 82-83.

وليس إلى الشك سبيل فى أن ملك النورمانيين الذى ذهبت إليه السفارة كان هوريك (أو هاريك = إريك) ملك دانيمرقة ، لا الزعيم تورجايس كما ظن « ألن ماور » . فقد كان الغزاة نورمانيين دانيمرقيين ، وفيهم جماعة نرويجية كما بينا ، وكانوا قد خرجوا أول الأمر من « فريزلاند » ، وكانت فى طاعة هوريك ، وتمادوا مع شواطئ الفرنجة وشواطئ اشتريس حتى وصلوا إلى شواطئ الأندلس . أما القول بأن يحيى الغزال سفر إلى « تورجايس » زعيم النورمانيين فى أيرلانده ، فلا يؤيده إلا أن الغزال سمى زوج ملك النورمانيين الذى لقيه باسم « تود » ، وهو قريب من « أوتا » أو « توتا » زوج « تورجايس » على الحقيقة ، وهو دليل ضعيف . وسنرى من تفاصيل رحلة الغزال أنه يستبعد أن تكون تود التى تغزل فيها الغزال زوجا لهوريك ، وأن الغالب أنها كانت مجرد أميرة كبيرة من أميرات بلاطه .

* * *

وقبل أن نمضى فى ذكر تفاصيل رحلة يحيى الغزال إلى دانيمرقة ، ينبغى أن نقف لحظات عند شخصية هذا الرجل الذى اختصه عبد الرحمن بالسفارات مع معاصريه من الملوك ، لأن ذلك يلقى ضوءاً على ما كانت حكومة قرطبة فى القرن التاسع الميلادى تتصوره من الصفات والخلال اللازمة لمن يسفرون بين الملوك ، ويصور لنا لذلك جوانب طيبة من الحياة الأندلسية فى قرطبة فى ذلك الحين .

يصفه ابن حيان فى المقتبس بأنه « كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها » ، ويذكر المقرى « أن حسبه يرتفع به إلى بنى بكر بن وائل ، أى أنه كان من أبناء البيوت العربية الأصيلة » ، ويصفه تمام بن علقمة بالجمال والطول والعرض . ويبدو أن الرجل كان ذا جمال ظاهر ، لأن الناس لقبوه بالغزال لجماله ، وكان الأمير عبد الرحمن يعجب بحسنه ، فقد دخل عليه مرة فقال عبد الرحمن : جاء الغزال بحسنه وجماله .

وطلب أحد الوزراء الحاضرين إلى يحيى أن يجيز شعر الأمير فقال بديهة :

قال الأمــير مداعبــاً بمقاله   جــاء الغــزال بحسنه وجماله

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٦٢٩ .

(٢) رواية ابن دحية فى « المطرب » ، انظر النص بعد ذلك .

أين الجمال من امرئ أربى على متعدد السبعين من أحواله[١]

مما يدل على أن الرجل كان محتفظاً بهيئته الجميلة رغم سنه العالية ، وكان جماله هذا من الأسباب التى حدت بعبد الرحمن إلى انتدابه للسفارة بينه وبين الملوك ، فقد حسن موقعه منهم وسهل عليه اجتلاب رضاهم ، وكان إلى جمال وجهه رجلا طويلا عريضاً « مجتمع الأشد » ظاهر الصحة كثير النشاط.

ومن الطريف أن معظم ما لدينا من أخباره يتصل بشيخوخته دون صباه وشبابه ، وأقدم ما لدينا من أخباره يرجع إلى ما بعد الأربعين من سنى حياته . وقد كان عمره سنة ٢٣٠ هـ خمسين سنة ، أى أنه ولد سنة ١٨٠ هجرية ٧٩٤ م فى مطلع إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل[٢] ، وأيفع على أيام الحكم الربضى ، واكتهل على أيام عبد الرحمن الأوسط . فكيف لم ترد عنه أخبار أو أشعار إلا بعد كهولته ؟ وكيف اتفق أن كل ما لدينا من هذه الأشعار لا يزيد على بضع قصائد ، بينما يحدثنا المؤرخون أن الرجل كان مكثراً يقول الشعر فى كل مناسبة ، بل إن المقرى يذهب إلى أنه ألف تاريخاً لأمراء الأندلس إلى عهده شعرا[٣] ؟ لا بد أن شعراً كثيراً لهذا الشاعر المفطور قد ضاع . ولا يصدق هذا عن الغزال وحده ، بل ينطبق على معظم شعراء الأندلس إلى أوائل القرن الخامس ، ولو جمعنا كل ما لدينا من شعر الأندلسيين فيما بين القرن الثانى والقرن الرابع لما ملأت كراساً متوسط الحجم .

يذكر المقرى أن يحيى الغزال « كان من كبار رجال الدولة[٤] ، ولكنه لم يذكر لنا شيئاً عن الوظائف التى كان يتقلدها ، ولم يرد له ذكر بين أسماء القواد والوزراء والحجاب ، مما يدل على أنه كان دون هؤلاء

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ – ٩٦ .

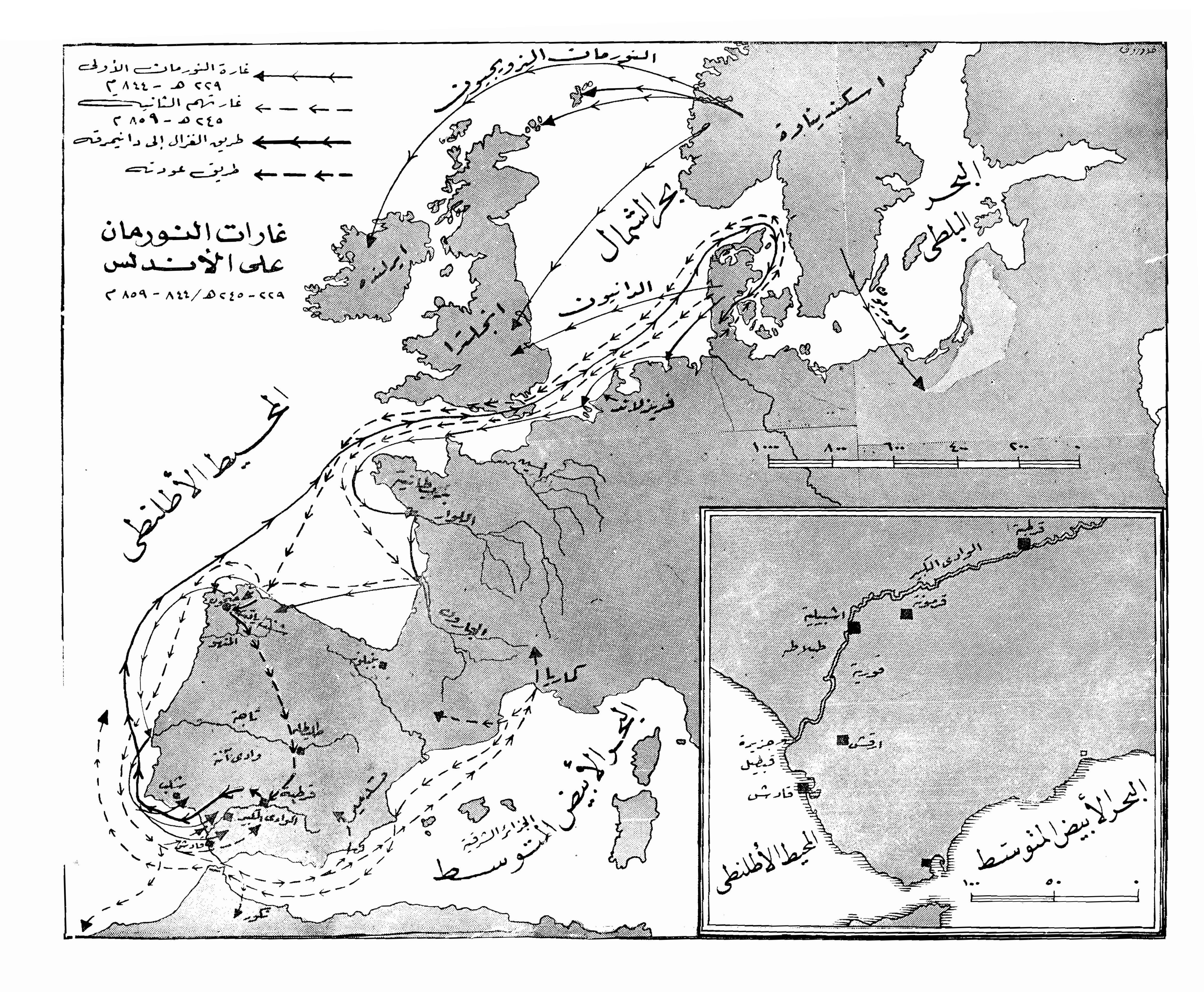
(٢) لا فى أيام عبد الرحمن الداخل كما يقول المقرى (ج ١ ، ص ٦٢٩) .
وللغزال بيت من الشعر يقول فيه :

أدركت بالمصر ملوكا أربعه وخامساً هذا الذى نحن معه

أى أنه توفى فى أيام الأمير المنذر .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) المقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .



غارات النورمان
على الأندلس
٢٢٩-٢٤٥هـ/٨٤٤-٨٥٩م
غارة النورمان الأولى
٢٢٩ هـ - ٨٤٤م
غاراتهم الثانية
٢٤٥ هـ - ٨٥٩م
طريق الغزال إلى دانيمرقة
طريق عودته
النورمان النرويجيون
اسكنديناوة
البحر البلطى
بحر الشمال
الدانيون
إيرلندا
انجلترا
فريزلاندة
المحيط الأطلنطى
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية
كارلا
اللوار
الجارون
بنبلونة
طليطلة
وادي آنة
قرطبة
الوادي الكبير
قادس
نكور
الوادي الكبير
قرمونة
اشبيلية
طبوطة
قورية
وشقة
جزيرة قبطيل
قادش
المحيط الأطلنطى
البحر الأبيض المتوسط

مرتبة فى الوظائف الرسمية . ولأبى الخطاب بن دحية رواية تدل على أن يحيى بن حكم كان يتقلد الوظائف الإدارية فى الكور ، وذلك حيث يقول إن عبد الرحمن « كان ولاه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها فى الأهراء »، ولم تكن تلك الوظيفة من الوظائف الكبرى على أى حال ، مما يدلنا على أن الغزال كان يتولى هذا النوع من الوظائف . وتدل بقية الخبر على أن الغزال كان رجلا رحيم القلب واسع الذهن حسن التصرف ، فقد اشتدت المجاعة وغلا السعر ذلك العام فى الأندلس ، فما كان من الغزال إلا أن « وضع يده فى البيع حتى أتى على ما كان عنده فى الأهراء ، ثم إنه نزل الغيث ورخص الطعام ، فأعلن السلطان بما صنع الغزال من البيع ، فأنكره وقال : « إنما نعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها فى الجهد فماذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعاماً واصرفوه فى الأهراء إلى وقت الحاجة إليه[1] » . فرفض الغزال أن يدفع المال ، وعرض أن يرد مقادير الغلال التى تصرف فيها ، وثار الخلاف بين الأمير والغزال ، وانتهى الأمر بانتصاره ، وقال للأمير شعراً يسترضيه ، فأعجب به بعض حاشية الأمير وقالوا له :

« لقد أنصفك الغزال فى قوله :

لقد أحسن الله إلينــا معا إن كان رأس المال لم يذهب

فإنه لو ذهب المال أيها الإمام أى ذمة كانت تفى به للغزال ، مع ما هو عليه من الإهمال[2] وقلة المال ؟ » . والعبارة الأخيرة تفسر لنا السبب فى قعود الغزال عن التقدم إلى الوظائف الكبرى ، فقد كان معروفاً بالإهمال والاستبداد برأيه . ثم إن الإشارة واضحة الدلالة على فقره وقلة ماله ، ولو كان ممن يتولون الوظائف الكبيرة لما كانت هذه حاله .

وكل ما يمكننا قوله عن مركز الغزال فى المجتمع القرطبى هو أنه كان من أولئك المساتير ذوى الحسب الذين وهبهم الله ملكة خصبة فى الشعر ، ونصيباً طيباً من العلم ، وشيئاً كثيراً من خفة الروح واللطف وحضور البديهة . فكان يلى الوظائف أحياناً ، ويخلد إلى الدعة ونظم الشعر والتردد على مجالس السلطان أحياناً أخرى ، فوصفوه بالحكيم ، بل بحكيم الأندلس فى عصره .

(١) و (٢) أبو الخطاب بن دحية ، المطرب ، ورقة ١٠٤ ا .

وانتشرت أحاديثه وذاعت دعاباته ، ويبدو أنه كان فى صباه ماجناً مفرطاً فى المجون ، لأن كثيراً جداً من شعره يدل على عدم تحفظ واستهتار . وكان هذا مما حببه إلى معاصريه ، فقد كان أهل الأندلس إلى ما قبل إمارة عبد الرحمن أجلافاً بعض الشىء ، ولم ترق أخلاقهم ولم تسد مجتمعاتهم رقة الحضارة إلا منذ أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط .

هذا وشاعرية الغزال أمر ذائع معروف ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد نماذج منها ، ويستطيع القارئ أن يقرأ أطرافاً لطيفة من هذا الشعر عند ابن حيان والمقرى وابن دحية فى المواضع التى أشير إليها فيما سلف ، وستقرأ أطرافاً من هذا الشعر فى أخبار رحلته ، تدلنا على مكانه من الشاعرية وجودة النظم ولطف الإلهام .

وربما كان السبب فى عدم توليه الوظائف الكبرى هو ما عرف عنه من نزوع إلى الحرية فى أقواله وأفعاله ، فكان لا يتحفظ فى رأى يقوله ، وربما حلق بفكره إلى آفاق تقترب به من الشك فى مسائل العقيدة . ومن أمثلة ذلك قوله بصدد البعث بعد الموت :

يا ليت شعرى أى شىء محصل ير ... ى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى ؟ ... فهل للقلوب النائمات عيون ؟
وكيف يرى والعين قد مات نورها ... وواقعه شبه الوقار سكون ؟

بل ذكر المقرى أن يحيى ذهب مع الجرأة على الدين إلى حد أنه أراد معارضة سورة (قل هو الله أحد) ، فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها ، فأناب إلى الله فعاد إلى حاله[١] » .

بيد أن الظرف كان أغلب على الرجل من الإلحاد ، وكانت مقطعاته القصيرة فى الهجاء والسخرية من الناس من أشيع الشعر على ألسنة الأندلسيين . وكان له كلف خاص بهجاء الفقهاء ، وهى ظاهرة لم ينفرد بها الغزال بين شعراء الأندلس ، فقد كان الأندلسيون يكرهون الفقهاء ، وينكرون عليهم سلطانهم واحتجانهم الأموال ، وكان شعراؤهم لا يدعون فرصة للنيل منهم إلا ابتدروها ، وكان يحيى من أشد الناس عليهم ، وله فيهم شعر لطيف[٢] .

---

(١) المقرى ، ج ١ ، ص ٦٣٣ .

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عنان . يحيى الغزال ، شاعر وفيلسوف وسياسى . مجلة الثقافة ، العدد ٢٦١ ، ص ١٥ وما بعدها .

وطبيعى أن يكون رجل هذه صفاته مرشحاً لمهام السفارة إلى الملوك إذا دعا إليها داع ، فله من شرف المحتد وحسن الأدب وسعة الذهن وخفة الروح وجمال الهيئة ما يمهد له السبيل إلى قلوب الملوك ورجال حاشيتهم ؛ وقد وفق الغزال فى المهمتين الدبلوماسيتين اللتين وصلتنا أخبارهما أحسن توفيق ؛ وسنقصر الكلام هنا على سفارته الثانية إلى هوريك ملك النورمانيين الدانيمرقيين . وينبغى ألا ننسى أن « السفارات » فى هذه الأيام كان لها معنى آخر غير ما نفهمه نحن من لفظ « سفارة » ، فلم تكن وظيفة من وظائف الدولة الثابتة الدائمة ، وإنما كانت مهمة طارئة يكلها الخليفة أو الأمير إلى من يريد ، وتنتهى بانقضاء المهمة . ولم يكن الأمراء يتخيرون لها رجالا « سياسيين » ، وإنما رجالا ذوى حسب ونسب وطلاقة لسان ، كيحيى بن حكم البكرى الغزال هذا ، وأسامة بن منقذ ، وفخر الدين عثمان الاستادار ، وغيرهم من سفراء ملوك المسلمين[1] .

صدر يحيى بن حكم البكرى الغزال فى سفارته على أثر وصول رسل من قبل هوريك ملك الدانيمرقة « يطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ، ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول بها[2] » . فإذا كانت غزوة النورمانيين التى فصلنا أمرها قد انتهت فى صفر سنة ٢٣٠ هـ — أكتوبر ٨٤٤ م ، فلا بد أن شهوراً انقضت بعد ذلك حتى عاد مَن عاد من النورمانيين إلى بلاده ، وحدّث هوريك بأمر الدولة الأندلسية الإسلامية وما وقع لهم معها ، فثاب لهوريك رأى فى مراسلة عبد الرحمن . ولما كان النورمانيون لا يخرجون فى رحلاتهم البعيدة إلا فى مطالع الربيع ، فالغالب أن رسل هوريك كانوا فى قرطبة فى ربيع سنة ٨٤٥ م ، أى فى شوال أو

---

(١) سفارة أسامة بن منقذ بين صلاح الدين الأيوبى والمنصور أبى يوسف يعقوب الموحدى معروفة ، أما فخر الدين الاستادار فقد سفر بين سلطان مصر وملك برشلونة سنة ٧٠٣ هـ (انظر السلوك للمقريزى ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٥١) . وتاريخ السفارات الإسلامية فى حاجة إلى دراسة ، ويعتبر يحيى الغزال نموذجا للسفير الإسلامى ، وهو يحقق كل الشروط التى اشترطها « ابن الفراء » فى السفير .

انظر : أبو الحسين على بن محمد المعروف بابن الفراء : كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة (طبعة القاهرة ، ١٩٤٧) ، ص ١٣ — ١٧ .

(٢) ابن دحية . المطرب . ص ١٠٣ ا .

ذى القعدة من سنة ٢٣٠ هـ . فإذا قدرنا أن هؤلاء الرسل أقاموا فى قرطبة شهراً أو شهرين ، كان فى استطاعتنا القول أن يحيى الغزال صدر فى رحلته فى أوائل سنة ٢٣١ هـ ، أى فى أواخر صيف سنة ٨٤٥ م .

اصطحب يحيى الغزال فى رحلته تلك رجلا يسمى يحيى بن حبيب ، وأنشأت لهما الحكومة « مركباً حسناً كامل الآلة » ، وحمّلهما عبد الرحمن رداً على رسالة ملك النورمانيين مع هدية حسنة ، ولم يقدم لنا ابن دحية نص ذلك الرد . ولندع أبا الخطاب يروى رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك بأسلوبه الطريف الممتع(١) ، ولنكتف بالتعليق عليه بعد ذلك .

(١) النسخة الخطية من « المطرب من أشعار أهل المغرب » موجودة فى لندن . وتوجد منها نسخة مصورة فى دار الكتب المصرية . وقد أخذنا منها نص رحلة الغزال (من ص ١٠٤ ا وما يليها) . وقد أوردها ابن دحية فى سياق ترجمته ليحيى الغزال ، وقد نشرها لأول مرة زيبل فى كتابه .

Alexander Seippel: Rerum Normannicarum fontes Arabici (Christiania 1896). ص ص ١٣ — ٢٠

وقد جمع فيه الفقرات التى أوردها كتاب العرب عن أهل أوربا بما فيهم النورمانيين . وقد استعملت نصوصه التى أوردها فيما سبق من أجزاء البحث . ونشر النص كذلك دوزى فى :

Dozy: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyeen-Age (2. éd. Leyde 1881) appendice pp. LXXI sqq.

وترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها فى نفس الكتاب (ص ٢٦٧) وما يليها . وقد ترجمها إلى الألمانية وعلق عليها :

Georg Jacob: Arabische Berichte von Gesandeten an germanische Fuerstenhoefe aus dem q. u. 10. Jhdrt. Leipzig u. Berlin. 1910.

٥

رواية أبي الخطاب بن دحية
عن رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك

قال(١) ، ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس يطلب

---

(١) القائل هنا هو أبو الخطاب بن دحيه ، واسمه الكامل مجد الدين أبو الخطاب عمر ابن الشيخ الإمام أبى على حسن بن على سبط الإمام أبى البسام الفاطمى المعروف بذى النسبين دحية والحسين . وقد اختصه ابن خلكان بترجمة هذا نصها « كان من أعيان الفقهاء ومشاهير الفضلاء ، متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها . واشتغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقى بها علماءها ومشايخها . ثم رحل إلى بر العدوة ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها . ثم ارتحل إلى إفريقية ، ومنها إلى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق . وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين ، وسمع بواسط من أبى الفتح محمد بن أحمد الميدانى ، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران . كل ذلك فى طلب الحديث والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم ، وهو فى تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه . وكانت ولادته فى مستهل ذى القعدة ٥٤٤ هـ — ١١٥٠ م ، وتوفى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م »

ابن خلكان . وفيات جـ ١ ، ص ٥٤٤ .

وقد تفضل زميلى الدكتور جمال الشيال فنقل لى بضعة أسطر أوردها عن ابن دحية جمال الدين بن واصل فى « مفرج الكروب » جاء فيها أن ابن دحية كان فيمن وفد إلى الكامل سلطان مصر « وتقدم عنده ولازمه ، وبنى له دار الحديث بين القصرين فى الجانب الغربى ، وجعله شيخها » ، وختمها بقوله « وكان فى مجد الدين جرأة وحدة »

ابن واصل . مفرج الكروب (مخطوطة باريس) ص ٣ .

ويجمع بقية من ذكر ابن دحية من المؤرخين على انتقاد خلقه ، فعلاوة على هذه الإشارة الموجزة التى وردت فى عبارة ابن واصل نقرأ عنه فى تذكرة الحفاظ للذهبى : « وكان على كثرة علمه وفضائله معروفا بالمجازفة والدعاوى العريضة ، وأنه يدعى أشياء لا حقيقة لها ، ومن هؤلاء من اختبر لفظه أو امتحن فهمه . . . وعده مدلسا » . (انظر جـ ٤ ، ص ٢٠٥) . ولم أجد فى أى نص من هذه النصوص إشارة إلى كتابه « المطرب فى أشعار أهل المغرب » الذى أخذنا عنه الكلام عن يحيى بن الغزال ورحلته . ويبدو من مجموع كلام هؤلاء المشارقة أنهم كانوا يبغضونه ، وسنلاحظ من سياق حديثه أنه هو الآخر يكرههم — شأن الكثيرين من الأندلسيين .

=

الصلح(١) بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ، ثم هزيمتهم بها ، وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك . فأمر الغزال أن يمشى فى رسالته مع رسل ملكهم ، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأى ، وحسن الجواب والنجدة ، والإقدام والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب . فنهض إلى مدينة « شلْب » ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة ، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته . ومشى رسول ملكهم فى مركبهم الذى جاءوا فيه مع مركب الغزال ، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل فى البحر — الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألُويـَة(٢) — هاج عليهم البحر ، وعصفت بهم ريح شديدة ، وحصلوا فى الحد الذى وصف الغزال فى قوله :

قال لى يحيى وصرنا ... بـين موج كالجبـال
وتولتنـا ريـاح ... من دبـور وشمال
شقت القلعـين وانبـ ... ـتَّت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المـو ... ت إلينـا عن حيال
فرأينـا المـوت رأى الـ ... ـعـين حالا بعـد حال
لم يكن للقـوم فينـا ... يا رفيقى رأس مال(٣)

= وقد نشر الأستاذ عباس العزاوى كتيباً صغيراً لابن دحية عنوانه « النبراس فى خلفاء بنى العباس » قدم له بمقدمة طيبة عن ابن دحية .

وانظر عن ابن دحية أيضاً :

الخطط للمقريزى (ج ٣ ،) ص ٢٧ . طبعة مطبعة النيل . وفيها يذكر أنه « أول من ولى مشيخة دار الحديث الكاملية فى القاهرة » .

وكذلك : ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢٤

(١) طلب الصلح هذا من جانب ملك المجوس غير مفهوم . انظر التعليق بعد نهاية النص .

(٢) لم يستطع « جيورج ياكوب » تحقيق هذا اللفظ ، وعلق عليه دوزى بقوله : « الكلام يدور هنا من غير شك حول رأس « سان فنسنت » Saint Vincent » ، ولم أجد فى أى موضع ذكراً لهذا الجبل الذى يذكره المؤلف . وكان القدماء يسمون رأس سان فنسنت هذا Promentarium Sacrum ، وكان الإسبان يسمونه فى القرن الثانى عشر Promentario del Algarbe . وكان العرب يسمونه « كنيسة العقاب » . انظر الإدريسى ، ص ٢١٨ ، و :
Dozy, Recherches, I, p. 270 n. 1.

(٣) لا بد أن الغزال يصف بهذه الأبيات مروره ببحر المانش وما قاساه من أمواجه ، وقد مر الغزال فى هذا البحر فى شهر سبتمبر ، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره . وقد أورد المقرى فى نفح الطيب هذه القصيدة وأضاف إليها أبياتاً أخرى .

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار ، وركوب الأخطار ، ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم ، وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم ، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهى جزيرة عظيمة[١] فى البحر المحيط ، فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلاثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس . وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ، ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار[٢] ، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار[٣] ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم . فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم ، وأخرج إليهم من يلقاهم ، وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم .

ثم إنهم أنزلوا فى كرامة ، وأقاموا يومهم ذلك ، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له ، ولا يخرجهما عن شىء من سنتهما ، فأجابهما إلى ذلك . فلما مشيا إليه ، قعد لهما فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه فضُيق ، حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً . فلما وصل إليه جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على أليته زحفاً ، فلما جاز الباب استوى واقفاً ، والملك قد أعد له واحتفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه فقال : « السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك ، ولا زلت

---

(١) المقصود هنا شبه جزيرة چوتلاند ، والعرب يستعملون لفظ جزيرة لشبه الجزيرة ؛ ووصف الغزال لشبه جزيرة چوتلاند هنا فريد فى بابه . وهو من أقدم ما وصلنا من أوصافها الجغرافية . انظر : Cf: G. Jacob, op. cit. p. 38. n. 1.

(٢) هذه الملاحظة من يحيى الغزال صحيحة من الوجهة التاريخية ، فقد اعتنق نورمان دانيمرقة النصرانية فى ذلك الحين ، وبقى معظم من يليهم إلى الشمال فى جزر سكاجر راك واسكنديناوة على النصرانية .

(٣) يؤيد الغزال هنا كارل فاينهولد :
Cf: Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.

تمتع بالعز والبقاء والكرامة المفضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام فى جوار الحى القيوم ، الذى (كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع[1]) » . ففسر له الترجمان ما قاله ، فأعظم الكلام ، وقال : « هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم » . وعجب من جلوسه إلى الأرض ، وتقديمه رجليه فى الدخول ، وقال : « أردنا أن نذله ، فقابل وجوهنا بنعليه ، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه » . ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن ، وقرئ عليه الكتاب وفسر له ، فاستحسنه وأخذه فى يده ، فرفعه ثم وضعه فى حجره ، وأمر بالهدية ففتحت عيابها ، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأوانى ، فأعجب بها ، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ، ووسع الجراية عليهم .

وللغزال معهم مجالس مذكورة ومقاوم[2] مشهورة فى بعضها ، جاول علماءهم فبكّتهم ، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم .

ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ثم شخص فيها طويلا ، ينظرها نظر المتعجب ، فقالت لترجمانها : « سله عن إدمان نظره لماذا هو : ألفرط استحسان أم لضد ذلك ؟» فقال : « ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظراً مثل هذا . وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا » فقالت لترجمانها : « سله ، أمجد هو أم هازل ؟ » فقال : « لا ، بل مجد ! » فقالت له : « فليس فى بلدهم إذا جمال ! » فقال الغزال : « فاعرضوا علىّ من نسائكم حتى أقيسها بها » . فوجهت الملكة فى نساء معلومات بالجمال ، فحضرن فصعد فيهن وصوب ، ثم قال : «فيهن جمال ، وليس كجمال الملكة ، لأن الحسن الذى لها والصفات المناسبة ليس يميزها كل أحد ، وإنما يعنى به الشعراء . وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها فى شعر يروى فى جميع بلادنا فعلت ذلك » . فسرت بذلك سروراً عظيما ، وزهيت وأمرت له بصلة ، فامتنع من أخذها الغزال وقال : « لا أفعل » فقالت للترجمان : « سله ، لم لا يقبل صلتى ؟ ألأنه حقرها أم لأنه حقرنى ؟ » ، فسأله فقال

---

(١) القرآن الكريم . سورة ٢٨ ، آية ٨٨ . وفى نص الآية : وإليه ترجعون .

(٢) كذا فى الأصل . وصحتها : مقامات

الغزال : « إن صلتها لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشرُّف ، لأنها ملكة بنت ملك ، ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها علىّ ، فحسبى بذلك صلة . وإنما أريد أن تصلنى بالوصول إليها أبداً » . فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت سروراً وعجباً ، وقالت : « تحمل صلته إليه ومتى أحب أن يأتينى زائراً فلا يحجب ، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة » ، فشكرها الغزال ودعا لها وانصرف .

قال تمام بن علقمة (١) : سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث ، فقلت له : « وكان لها من الجمال بعض هذه المنزلة التى صورت فى نفسها ؟ » فقال : « وأبيك لقد كانت فيها حلاوة ، ولكنى اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . قال تمام ابن علقمة : وأخبرنى أحد أصحابه ، قال : « أولعت زوجة ملك المجوس بالغزال ، فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه ، ويقيم عندها يحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم ، فقلَّما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية تلطفه بها ، من ثياب أو طعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكره أصحابه وحُذّر منه الغزال . فحذر وأغب زيارتها ، فباحثته عن ذلك فقال لها ما حذر منه ، فضحكت وقالت له : « ليس فى ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت (٢) . وأما عادة المجوس قبل أن يصل إليهم

---

(١) توفى سنة ٢٨٣ هـ – ٨٩٦ م .

(٢) هذه حقيقة تاريخية أخرى عن حياة النورمانيين فى ذلك الحين ، وقد علق عليها جيورج ياكوب بقوله :

ورد فى كتاب « مختصر صرف اللغة الجرمانية :

Grundriss der germanischen Philologie, 2. Aufl. 3. Band, 1900, s. 422.

ما يلى :

« ويستطيع الإنسان أن يجد عاملا من العوامل التى ساعدت على استقلال ربة البيت فى السهولة التى كانت الزوجة تستطيع بها أن تحصل على الطلاق ، وتستعيد أملاكها من زوجها فى نفس الوقت ؛ بهذا تحدثنا الأساطير أيضاً . ويبدو أن حرية الطلاق لم تكن محدودة بشىء فى الفترة التى نشأت فيها هذه الأساطير ، فما نراه فيها من حوادث الطلاق لا يستند فى الغالب إلا إلى أسباب تافهة ، حتى إنه لمن العسير جداً أن نجد له قيوداً معينة »

Cf: G. Jacob: op. cit. p. 40. n. 3.

دين رومة ، فأن لا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع فتعير بذلك ، ويحجره عليها أهلها[١] » . فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله .

قال تمام : كان الغزال فى اكتهاله وسيماً ، وكان فى صباه جميلاً ، ولذلك سمى بالغزال . ومشى إلى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشد ، ضرب الجسم ، حسن الصورة . فسألته يوماً زوجة الملك — واسمها « نود »[٢] — عن سنه ، فقال مداعباً لها : « عشرون سنة ! » فقالت للترجمان : « ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب ؟ » فقال لترجمان : « وما تنكر من هذا ؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب ؟ » فضحكت « نود » وأعجبت بقوله ، فقال فى ذلك الغزال بديهاً :

كلفت يا قلبى هوى متعبا غالبت منه الضيغم الأغلبا

إنى تعلقت مجوسـية تأبى لشمس الحسن أن تغربا

أقصى بلاد الله فى حيث لا يلقى إليه فى ذاهب مذهبا

يا نود يا رود الشـبـاب التى تُطلع من أزرارها الكوكبا

يا بأبى الشخص الذى لا أرى أحلى على قلبى ولا أعذبا

إن قلت يوماً إن عينى رأت مشبهه لم أعد أن أكذبا

قالت : أرى فوديه قد نوّرا دعابة توجب أن أدعبا

---

(١) يؤيد تلك الحقيقة فاينهولد فى كتاب « الحياة القديمة للنورمان » بقوله :

« ... وعلى العكس من ذلك كان زواج الأحرار بغير الأحرار غير ممكن ، وكانت عقوبة هذا النوع من العلاقات الموت فى أول الأمر » .

Weinhold: Altnordisches Leben, p S. 243.

(٢) ورد اسم هذه الملكة بالنون فى الأصل : نود ، وكذلك فى المقرى (نفح ، ح ١ ص ٦٣١) ، ويذهب جيورج ياكوب إلى أنه من الممكن أن تكون هذه الصورة تحريفاً لاسم : تود Tûd أو: ترود Trûd أو: ثود Thûd وما إلى ذلك . وقال إنه من الممكن أن يكون أصل هذه الملكة من بيت ملكي آخر غير بيت ملك النورمانيين . لأن سلطان زوجها كان يمتد إلى إسبانيا كما يقول الغزال . ولكن عبارة الغزال معناها أن سلطان زوجها — هاريك — كان يمتد إلى جميع النواحى التى كان النورمانيون يسيطرون عليها فى ذلك الحين . أى حتى شطآن إفرنجة وأكويتين إلى حدود إسبانيا النصرانية .

Cf.: G. Jacob, op. cit. p. 41 n. 1.

قلت لهـــا : يا بأبى إنه — قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجباً بقولى لها — وإنمـــا قلت لكى تعجبا

وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس ابن الأحنف ، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستُغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسياً أن كان أندلسياً ، وإلا فما له أُخْمِل ؟ وما حق مثله أن يهمل ، وهل رأيت أحسن من قوله :

تأبى لشمس الحسن أن تغربا ؟

أو كالبيت الأول من هذه القطعة ، أو كصفته لما جرى فى الدعابة ؟ هل وصفه إلا الدر المنتظم ، وهل نحن إلا نظلم فى حقنا ونهتضم[1] ؟ » .

ولنرجع إلى ذكر الغزال : فإنه لما أنشد « نود » الشعر ، وفسره الترجمان لها ، ضحكت منه وأمرته بالخضاب ، ففعل ذلك الغزال ، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب ، فمدحت خضابه وحسنته عنده ، ففى ذلك يقول الغزال :

بكرت تحسن لى سواد خضابى — فكأن ذاك أعادنى لشـــبابى
ماالشيب عندى والخضاب لواصف — إلا كشمس جللت بضـــباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا — فيسير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فإنما — هو زهرة الأفهام والألبـــاب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا — وطـــلاوة الأخـــلاق والآداب

ثم انفصل الغزال عنهم ، وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب[2] بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم[3] ،

(١) هنا نجد دليلا على ما كان ابن دحية يتهم به من الحدة والجرأة ، وفيه كذلك دليل على ما كان الأندلسيون جميعاً يشعرون به من بغض للمشارقة واستعلاء عليهم ؛ ونجد هذه الروح — روح الثورة على المشرق والتسامى عليه — عند ابن بسام فى الذخيرة (انظر المقدمة) ابن حزم (انظر رسالته التى أوردها المقرى) وابن فرج فى مقدمة « الحدائق » .
ولعل ابن دحية يفرج عن نفسه بهذا الكلام ويتعزى به عما أصابه هو من مهانة على يد السلطان الكامل وفقهاء عصره

(٢) فى جليقية . ويرسمها كتاب المسلمين عادة : « شنت ياقب » ؛ وهى بالإسبانية : Santiago de Compostela.

(٣) أى حج نصارى الإسبان إلى بلدة « شنت ياقوب » ، وكان فيها قبر القديس يعقوب ، أحد كبار القديسين ، ويقال إنه كان من حواريى المسيح . وكان نصارى قشتالة يحجون إليه . وقد علق دوزى على هذه الفقرة بعد ترجمتها تعليقاً طويلا ذكر فيه أنها لا تعطى إلا =

فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً » .

* * *

وهذا الوصف وحده كاف لإقناعنا بأن خبر هذه الرحلة صحيح غير مختلق ، كما ظن ليڤي پروڤنسال . ففيه من الإشارات واللمحات ما يدل على أن ابن دحية يتحدث عن واقعة صحيحة ، لا عن « أسطورة مخترعة من أولها إلى آخرها » . ولو كان الغزال جغرافياً لاستطاع وصف رحلته على أدق من ذلك ، بل لو كان ابن دحية جغرافياً — ولم يكن أديباً — لما أضفى على الكلام هذا الطابع الأدبي الذى كان بعض الأسباب التى شككت پروڤنسال فى صحته .

ومن دلائل صدق الرواية أن أبا الخطاب يسندها إلى تمام بن علقمة ، وكان من كبار رجال الأمويين الأندلسيين ومواليهم ، وقد قام بدور عظيم فى تاريخ الأندلس أثناء إمارات هشام والحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط ، وتوفى عن سن عالية سنة ٢٨٢ هـ—٨٩٦ م . وقد أنشأ تمام تاريخاً منظوماً لأمراء الأندلس إلى عهده ، وكتب فى التاريخ نثراً كذلك . وقد نقل ابن دحية أخبار الغزال ورحلته إلى بلاد النورمانيين عن أحد مؤلفاته ، ولم يكن بحاجة إلى أن يكلف نفسه عناء هذا الاختلاق إذا كان غرضه مجرد رواية بعض أشعار ليحيي الغزال . هذا ، وقد كان إسناد هذه الرواية إلى تمام من الأسباب التى حدت بدوزى إلى قبولها ، وقد كان عالماً ناقداً لا يجوز عنده إلا الصحيح[1] ، ولم يقع فى أيدينا — بعد دوزى — نص واحد ينفى هذا الخبر . والقول بكذبه يحتاج إلى ما يؤيده ، غير مجرد إهمال ابن حيان إياه ومشابهته لأخبار رحلة الغزال إلى القسطنطينية ، وربما يكون

معلومات ضئيلة عن بلاد النورمانيين فى ذلك الحين ، وأنها لا تذكر شيئاً عن غرض هذه السفارة. وعلق على شخصية الغزال بقوله : « إنه كان من غير شك سفيراً ماهراً ، كان رجل بلاط ، وكان ذا ذكاء وفهم ، وكان خبيراً بأمور الدنيا . ومن العجيب أن نرى كيف أن هذا العربى الذى عاش فى القرن التاسع توصل إلى هذه الحقيقة : وهى أنه لا بد من كسب ود النساء حتى يحقق الإنسان أعمالا عظيمة . ولم يجاره فى فهم هذا الباب أحد ، فقد كان أقدر الناس على تملقهن بأسلوب ذكى رقيق . ويبدو أنه كانت له موهبة أخرى ، هى الصمت عند اللزوم . ولا بد أنه قص على أصحابه أثناء عودته شيئاً كثيراً عن مغامراته ، دون أن يفضى إليهم بشىء من أسرار الدولة التى اؤتمن عليها مما يزيد من قدره ، ولو أننا نأسف له من الناحية التاريخية » .

(١) Dozy : Recherches I, p. 278.

الغزال نفسه قد أدخل فى حديثه عن رحلته ما ظن أنه يزيدها طرافة ، وربما يكون المؤرخون من بعده خلطوا بين أحداث الرحلتين ، وهذا فى ذاته لا ينفى قيامه بالرحلة أصلا .

ثم إن وصف الغزال لشبه جزيرة چوتلاند وما يجاورها من الجزائر يؤكد لنا ذهابه إليها ، فهو أقدم وصف عربى لهذه الناحية ، إذ أن ابن دحية توفى فى القاهرة سنة ٦٣٣هـ–١٢٣٥م ، فمن أين استقى هذا الوصف الجغرافى الدقيق إلا من رجل ذهب إلى هناك ورآها بنفسه ؟ هذا ، ولم يحدثنا المسلمون عن واحد منهم ذهب إلى هذه البلاد الشمالية قبل ذلك الزمان ، بل إن من أتوا بعد ابن دحية لم يتحدثوا عن دانيمرقه بهذه الدقة ، فالقزوينى – زكريا بن محمد بن محمود – لم يذكرها فى « آثار البلاد وأخبار العباد » ، وإنما ذكر المجوس فقط دون تحديد لبلادهم ، ووصفها الإدريسى ، ولكن وصف الغزال – عن طريق تمام بن علقمة وأبى الخطاب بن دحية – أدق ، فهو يقول :

« ووصل – أى الغزال – أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجمعوا أنفسهم ، وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم ، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهى عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلاثمائة ميل ، وفيها المجوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار . . . » وهو وصف طيب من الناحية الجغرافية ، وهو أقرب إلى الحقيقة على أى حال من قول الإدريسى : « وجزيرة دانا مرخّة فى ذاتها مستديرة الشكل رملة ، وفيها من المدن أربع قواعد وقرى كثيرة ومراسٍ مستورة معمورة . فأول ذلك من فم الجزيرة إلى مدينة ألْسية على يسار الداخل خمسة وعشرون ميلا ، وهى مدينة صغيرة متحفزة بها أسواق قائمة وعمارات دائمة ، وهى على ساحل البحر . . . » فكيف أتيحت لتمام

ابن علقمة هذه المعرفة التى لم تتح للإدريسى ؟ إلا من رجل ذهب إلى هذه النواحى ورآها بنفسه ، وإذا كان هو نفسه يذكر أنه أخذه عن يحيى الغزال ، فما وجه القول بأن القصة مختلقة من أولها إلى آخرها ؟

وقرينة أخرى تؤيد صدق هذا الخبر ، هى قوله أن مجوس دانيمرقة كانوا على المجوسية ثم دخلوا النصرانية ، وبقيت منهم بقايا مجوسية وثنية فى الجزائر المحيطة بشبه الجزيرة . وهذا هو الواقع الذى تؤيده المراجع كلها ، فمن الثابت أن نورمان دانيمرقة دخلوا النصرانية قبيل رحلة الغزال إلى دانيمرقة ، فقد كان أول من تنصر من ملوكهم هارولد الأول — عم هوريك — تنصر فى إنجِلْهايم سنة ٨٢٦م. وتبعه بقية قومه ، وانتشرت النصرانية فى شبه الجزيرة على أيام هوريك[١] ، وبقيت من النورمانيين الدانيمرقيين جماعات وثنية فى الجزائر . وأخذ هارولد ثم هوريك يغازونهم ، ليرغموهم على الطاعة والنصرانية معاً . وهذه كلها حقائق ذكرها تمام بن علقمة عن يحيى الغزال ، ولو كان أبو الخطاب بن دحية نقلها عن أحد معاصريه فى القرن الثالث عشر الميلادى لما ذكر هذه المعلومات التى لا تنطبق على دانيمرقة إلا فى الفترة التى زارها فيها الغزال . ثم إن مثل هذا الوصف الدقيق والحديث عن حالة المجوس الدينية لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل رأى هذه البلاد بنفسه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ولم يبلغنا أن أحداً من المسلمين ذهب إلى هذه النواحى فى ذلك الحين إلا يحيى الغزال .

ثم إن قول تمام : « وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم » يدل بوضوح على أن وصف هذه الرحلة لا يمكن أن يكون مقتبساً من وصف رحلة الغزال إلى بلاط القسطنطينية ، لأن أهل هذا البلد الأخير لم يكونوا بحاجة إلى أن « ينجفلوا » لرؤية نفر من العرب ، وهم يعرفون العرب وأزياءهم جيداً بسبب الجوار واتصال العلائق ، أما النورماند فمن الطبيعى أن ينجفلوا لرؤية هؤلاء الأندلسيين فى ملابسهم الشرقية اللطيفة ، وهذه الإشارة تدل على أصالة الخبر وصدقه .

وهذا لا ينفى أن تفاصيل هذه الرحلة فيها مبالغة ظاهرة ، فهذه العلاقات الموصولة مع ملكة النورمانيين ، وهذه الدعابات المتواترة بينه وبينها ظاهرة

(١) J. Danstrup: A Hist. of Denmark, pp. 18-19.

التكلف ، ولا يبعد أن يكون الغزال نفسه صنعها ليزوق بها وصف رحلته ويضفى عليها طرافة . وإذا كان صحيحاً أن الغزال لقى امرأة تسمى « تود » فى الدانيمرقة وأعجب بها وأعجبت به وقال فيها هذا الشعر كله ، فالغالب أنها كانت من سيدات البلاط أو الظاهرات من نساء النورمانيين . وملاحظة « تمام » عن حرية المرأة فى الدانيمرقة فى ذلك العصر جديرة بالعناية ، وهى ولا شك تنفع من يدرسون تاريخ المجتمع الدانيمرقى فى هذه العصور .

بقيت لنا ملاحظة على طريق عودة الغزال ، فقد أربى بشاطىء إسبانيا فى الشمال على مقربة من شنت ياقب Santiago « بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم ، فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً » وهى إشارة يفهم منها أن ملك أشتريس إذذاك ردمير الأول (Ramiro I ٨٤٢ — ٨٥٠) كان على سلام مع عبد الرحمن الأوسط خلال السنة التى عاد أثناءها الغزال من رحلته وهى سنة ٢٣٢ هـ — ٨٤٦ م ، والواقع يؤيد ذلك من بعض الوجوه ، فليس فى تاريخ ردمير هذا حروب متصلة مع المسلمين فيما خلا معركة Cloijo المشكوك فى صحة خبرها سنة ٨٤٢ م ، وما تشير إليه المراجع الإسلامية من دخول ردمير فى ليون فى أواخر سنة ٨٤٦ م[1] . وإشارة تمام إلى العلاقات الطيبة بين هوريك وردمير الأول جديرة بأن يلاحظها مؤرخو أشتريس فى تلك العصور .

تلك هى سفارة يحيى الغزال إلى هوريك ملك الدانيمرقة ، وهى فى ذاتها حادث طريف فى تاريخ الإمارة الأموية الأندلسية وفى تاريخ « السفارات » الإسلامية على السواء . صحيح أنها لم تثمر شيئاً ، لأن النورمانيين عادوا فهاجموا الأندلس بعد ذلك بسنوات قليلة كما سترى ، ولكنها لا تختلف فى هذا عن كثير من سفارات هذه العصور ، فقد انتهت سفارة الغزال نفسه إلى بلاط تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى غير نتيجة كذلك[2] ، وإلى

---

(١) Ballesteros : Historia de Espana, II, p. 193.

(٢) Cf.: Lévi-Provençal: Byzance et Cordoue au IX siècle, dans: Hist. de l'Esp. Mus. 1. p. 177.

مثل هذه النتيجة كانت تنمى السفارات والمراسلات التى لم تنقطع بين أمراء الأندلس الأمويين وملوك الدويلات النصرانية فى شمال الأندلس ، وبينهم وبين أباطرة بيزنطة وغيرهم . ولكنها تدلنا — على أى حال — على أن عبد الرحمن الأوسط كان رجلا متفتح الذهن إلى مثل هذا اللون من الاتصال السلمى مع معاصريه من الملوك . وحسبه نتيجة لرحلتى سفيره الغزال إلى أقصى البحر الأبيض المتوسط فى الشرق وإلى دانيمرقة أن أحاط علماً بالأحوال فى تلك البلاد ، وعرف أشياء لها قيمتها عن أولئك « الأردمانيين » الذين كانوا لعنة هذه العصور ، لا للأندلس وحده بل لبلاد أوربا كلها وحوض البحر الأبيض المتوسط كله وشواطىء إفريقية بعد قليل .

٥

غارة النورمانيين على الأندلس
فى عهد الأمير محمد
٢٣٨ هـ — ٨٥٣ م

لم تنقض على عودة الغزال ثلاث عشرة سنة حتى عاد النورمانيين يهددون سواحل الأندلس من جديد : كان هوريك قد توفى سنة ٨٥٤ م ، وسادت الفوضى نواحى الدانيمرقة وكافة البلاد التى كان النورماند يسيطرون عليها مثل إيرلاندة ونورثامبريا فى شمال إنجلترا وبعض نواحى النرويج وفريزلاند على ساحل المانش ، وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تحرر قرصان النورمان من كل قيد ، فضوا يغيرون على الشواطئ التى استطاعوا الوصول إليها ، وتعتبر الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٧٨ ميلادية أوفر فترات عهد القرصنة فى تاريخ النورمانيين نشاطاً . وقد ظهر فيهم خلالها زعيم يسمى بيورْن يارنيسيوا Bjorn Jarnisioaa قاد أساطيل مراكبهم ومضى يضرب بها شواطىء دولة الفرنجة فى عنف ، وأعانه على ذلك اشتغال أبناء « لويس التقى » بالحروب التى شجرت فيما بينهم بعد معاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ م . فاستطاع النورمانيين الدانيمرقيون أن ينشئوا لأنفسهم مراكز جديدة فى مصبات أنهار « الرين »

و « الشلد » و « السوم » و « السين » و « اللوار » و « الجارون » . ولم يجد أهل هذه النواحى من يحميهم من أذى هؤلاء القراصنة العتاة ، فثاروا بهم وهاجموا مراكزهم بين السين واللوار هجوماً عنيفاً فى سنة ٨٥٩ ، ولكنهم لم يستطيعوا طردهم[١] .

وفى سنة ٨٥٩ م تحرك النورمانيون نحو شبه الجزيرة الإيبيرية من جديد ، ومروا بسواحل جليقية فى طريقهم إلى الشواطىء الغربية ، وكان يقودهم فى هذه المرة الزعيم « بيورن يارنسيوا » الذى ذكرناه ، وقرصان آخر من طرازه يسمى هاشتاين أو هيستنجز (Hasteinn,Hastings) . وكانا يرجوان من غارتهما تلك مغانم طيبة ، ولكنهما وجدا الأحوال على شواطىء الأندلس الإسلامى قد تغيرت تغيراً ظاهراً عما عهدها عليه أبناء جلدتهما ، قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

كان الأمير عبد الرحمن قد توفى منذ سبع سنوات (٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ — ٢٣ سبتمبر ٨٥٣ م) ، وخلفه ابنه الأمير محمد ، وكان يختلف عنه فى كثير . فقد كان الأمير محمد نشيطاً يقظاً حازماً ، لا يميل إلى الدعة والرفاهية اللتين شغلتا عبد الرحمن الأوسط عن كثير من شؤون رعيته ، فكان دائم الجلوس إلى رجال دولته ، يحادثهم ويباحثهم فيما جل أو صغر من شؤون الدولة ، بل كان يسرف فى الاهتمام بشؤون الدولة ومراجعة تفاصيلها إلى حد كان يثير النقد فى بعض الأحيان . وإجماع المؤرخين القدامى منعقد على الإعجاب به وتقديره ، وتفاصيل حياته تدل على أن دوزى أخطأ فى نقده خطأً بالغاً ، إذ كانت لمحمد من صفات الكفاية والقدرة ما جعل ملوك « نكور » و « تاهرت » فى إفريقية من أتباعه ورجاله ، وما جعل شارل الأصلع (Charle le Chauve) ملك الفرنجة يعجب به وبعقله . وقد تمتعت الأندلس فى العشرين سنة الأولى من حكمه بفترة من الرخاء والهدوء تعتبر استمرارا لحكم عبد الرحمن الأوسط ، حتى نجمت

(١) Allen Mawer: op. cit. p. 220.

ويسمى عصر القرصنة فى تاريخ الشعوب النورمانية فى الإنجليزية The Viking Period، وهو العصر الذى ملأت حوادثه بلاد دانيمرقة وشبه جزيرة اسكنديناوة ، ولهذا العصر فى تاريخ هذه الأمم حضارة خاصة .

Cf : J. Danstrup: op. cit. chap. III. pp. 15 sqq

فتنة عبد الرحمن الجليقى فى نواحى الغرب ، وفتنة « عمر بن حفصون » فى الجنوب ، وحتى وقع اضطراب العرب فى إقليمى إشبيلية ومرسية ، فبدأت الفتنة الكبرى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه ، ومسئوليته فى هذه الاضطرابات كلها قليلة[1] .

فى عصر محمد هذا عاد النورمانيون إلى مهاجمة الأندلس . وسنستبين من تفاصيل غارتهم تلك كفاية الأمير محمد وسلامة نظام حكومة الأندلس على عصره .

ذكرنا كيف انساح المجوس نحو الجنوب رويداً ، بسبب اضطراب أحوال دولتهم بعد موت « هوريك » ، وكيف وصلوا إلى مصب الجارون سنة ٨٥٩ م ، وكيف خرجوا من هناك للإغارة على بلاد إسبانيا . ويتفق المؤرخون الإسلاميون وكتاب المدونات اللاتينية من الإسبان على أنهم ظهروا أول الأمر هذه المرة عند شواطىء أشتريس أيضاً سنة ٢٤٥ هـ (٨ أبريل ٨٥٩ — ٢٧ مارس ٨٦٠) . ورواية ابن عذارى أوفى ما بين أيدينا فى هذا المقام ، فهى تقول : « وفيها — (أى فى سنة ٢٤٥ هـ) — خرج المجوس أيضاً إلى ساحل البحر بالغرب فى اثنين وستين مركباً ، فوجدوا البحر محروساً ، ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية فى

---

(١) تجد أخبار الأمير محمد فى :
الأخبار المجموعة ، ص ١٤١ — ١٥٠ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٠ — ١٠٢ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٦ — ١٢٣ .
ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٣٠ — ٢٦٣ .
النويرى ، نهاية الأرب (طبعة جسبار ذيميرو) ، ص ٢٠٥ — ٢١١ .
ابن الأبار ، الحلة ، ص ٦٤ — ٦٥ .
ابن الخطيب ، إعلام الأعلام ، ص ٢٢ — ٢٨ .
ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٠ — ١٣٢ .
المقرى . نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
وكذلك فى :

Dozy, Musulmans d'Espagne, I, 346-362.
Simon-t, Hist. de los Mozaràbes, p. 443-525.
Ballesteros: Hist de Espana, II. p.
Lévi Provençal. Histde, l'Esp. Mus. pp. 196. sqq.

الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فتلاقت بهم المراكب المعدة ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور « باجة ، »فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة .[١] » . وتهمنا هنا ملاحظة هذه الحراسة الدقيقة الشاملة التى أقامها الأندلسيون فى بحارهم الشمالية ، لأنها تدل على أنهم لم يكتفوا بحراسة سواحلهم الغربية ، بل انطلقت سفنهم إلى سواحل أشتريس ،لترقب المجوس عند خروجهم من شواطىء غالة الغربية ، ولتتلقاهم قبل أن ينحدروا إلى الجنوب ، مما يدلنا على أن الأندلسيين « درسوا » هذه المشكلة النورمانية ، وعرفوا من أين يخرج هؤلاء القوم ، وأقاموا طلائع من سفنهم فى هذه الناحية الشمالية لترقب حركاتهم . فلم يكد مركبان من مراكبهم ينفذان نحو الجنوب حتى تعقبتها سفن المسلمين ، ودخلت خلفها فى « وادى آنة » ، وما زالت بهما حتى استولت عليهما . أما بقية مراكب المجوس فقد اتجهت بعد ذلك نحو الجنوب ، وسفن المسلمين وراءها تطاردها كما سنرى . وربما كان هذا دليلا جديداً على صحة رحلة يحيى الغزال ، فقد قلنا إنه كان من أغراض سفارته تعرف أحوال بلادهم ، والمواضع التى يخرجون منها لغزو بلاد المسلمين ، وبناء على المعلومات التى أتى بها اتخذت حكومة قرطبة احتياطها وأرصدت سفنها فى هذه البحار النائية لتستطلع حركات النورمانيين .

ويهمنا كذلك أن نلاحظ هنا أن الأسطول النورمانى المهاجم هذه المرة كان — كما فى المرة السابقة — مكوناً من مجموعات صغيرة من السفن تعمل كل منها لحسابها الخاص ، دون أن تكون لها وحدة أو قيادة واحدة توجه أعمالها ، فكانت كل مجموعة تضرب حيثما اتفق لها . ومن ذلك ما يحدثنا به أصحاب « المدونات الإسبانية النصرانية » من أن بعض قطع هذا الأسطول النورمانى أغارت على شواطىء أشتريس فى بعض المواضع ، وأنزلت بها أضراراً جسيمة : فتذكر (مؤرخة البلدة Chronicon Albeldense) أنه فى حكم أوردينو ظهر النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطىء جليقية ، ولكن الكونت « بدرو » مزقهم إربا[٢] » . ويقول « سباستيان السلمنتى » فى

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، س ٩٩

(٢) Chronicon Albeldense, c. 61.

تفصيل أمر هذه الغارة : « وفى هذا الوقت ، وصل القراصنة النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطئنا ، ثم ذهبوا إلى إسبانيا[١] » ، أى أن هذه القطع من السفن النورمانية لم توفق إلى كثير فى أشتريس وغالة ، كما لم توفق فى ناحية « باجة » على ما رأينا . فلنتبع كتلة السفن النورمانية التى اتجهت نحو الجنوب مساحلة شاطىء إسبانيا الغربية لنرى إلى أين انتهى بها المصير .

يقول ابن عذارى — وهو أدق مؤرخينا الأندلسيين فى هذا المقام : « ومرت سائر مراكب لمجوس فى الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية فى البحر ، فأخرج الأمير الجيوش ، ونفر الناس من كل أوب ، وكان قائدهم عيسى بن الحسن الحاجب . وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت « بالجزيرة الخضراء » ، فتغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها . ثم جازوا إلى العدوة ، فاستباحوا أريافها (فى الأصل : أربابها) ، ثم عادوا إلى ريف الأندلس ، وتوافوا بساحل تُدْمير ، ثم انتهوا إلى حصن أوريوله ، ثم تقدموا إلى إفرنجة فشتوا بها ، وأصابوا بها الذرارى والأموال ، وتقلبوا بها على مدينة سكنوها ، فهى منسوبة إليهم إلى اليوم ، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس ، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً . ولقيهم مراكب الأمير محمد ، فأصابوا منها مركبين بريف « شذونة » فيها الأموال العظيمة ، ومضت مراكب المجوس[٢] » .

ومعنى ذلك أن النورمانيين لم يستطيعوا دخول « الوادى الكبير » هذه المرة ، لأن الأمير محمداً كان مستعداً لهم بالمراكب والعدة فى هذه الناحية ، ولم تكد مراكبهم تظهر فى مياه « إشبيلية » حتى سارعت قوات الأمير ، يقودها هذا الحاجب القائد الذى أرسله الأمير على جناح السرعة إلى هذه الناحية للدفاع عنها . ولم يملك الناس الرعب هذه المرة ، بل « نفروا من كل أوب » ليلاقوا هذا العدو الخطر ، وأمام هذا كله لم يجرؤ النورمانيون على النزول بناحية إشبيلية ، ومضت مراكبهم بحذاء الساحل تلتمس موضعاً ضعيفاً تنزل به ،

---

(١) Sebastian de Salamanca: Chronicón, c. 26.

ويريد سباستيان « بإسبانيا » هنا إسبانيا الإسلامية .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

حتى إذا أدركت ناحية « الجزيرة الخضراء » وجدتها غير محروسة تماماً، فنزل القرصان بها ، واستولوا عليها وأحرقوا مسجدها ، ثم عادوا إلى سفنهم مسرعين ليمضوا إلى ناحية وجدوا أن هجومهم عليها أجدى ، وهى عدوة مراكش مما يلى سبتة إلى الشرق ، أى أنهم دخلوا البحر الأبيض للمرة الأولى فى تاريخهم سنة ٢٤٥ هـ — ٨٥٩م ، وذلك حادث تاريخى فريد فى بابه جدير بأن ينبه عليه وعلى أهميته . ولو لم يجد المجوس أية مقاومة فى ناحية الجزيرة الخضراء لأقاموا أطول مما فعلوا ، ولكن المسلمين الأندلسيين هبوا لملاقاتهم ، وألزموهم بالفرار .

توجه النورمانيون إلى الشاطىء الإفريقى ، ونزلوا به عند « نكور » . ويعطينا ابن خلدون بعض التفاصيل عن إمارة « نكور » فى ذلك الحين ، وما فعله النورمانيون بها ، بقوله فى سياق الكلام عن تاريخ « بنى صالح » أصحاب نكور : « . . قال : وولى من بعده — يعنى المعتصم بن صالح بن منصور — أخوه إدريس ، فاختط مدينة « نكور » فى عدوة الوادى ، ولم يكملها ، وهلك سنة ثلاث وأربعين (ومائة) ، وولى من بعده ابنه سعيد ، واستفحل أمره . وكان ينزل مدينة « تمسامان » ، ثم اختط « نكور » لأول ولايته ونزلها ، وهى التى تسمى لهذا العهد « المزمة » بين نهرين أحدهما « نكور » ومخرجه من بلاد « كزنَّاية » ، ومخرجه ومخرج وادى « ورغة » واحد ، والثانى « غيس » ومخرجه من بلاد بنى « وَرْياغَل » ، يجتمع النهران فى « أكدال » ثم يفترق النهران إلى البحر ، وتقابل نكور من عدوة الأندلس بِزلْيانة ، وغزا المجوس نكور هذه فى أساطيلهم سنة ٤٤ (ومائتين) ، فتغلبوا عليها ، ثم اجتمع إلى سعيد البرانس وأخرجوهم منها[١] » .

ويزيدنا ابن القوطية تفصيلا عما فعل هؤلاء النورمانيون فى غارتهم تلك على نكور ، فيقول : « وتوجهوا إلى « ناكور » وأسروا بها جد ابن صالح ، وفداه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (كذا) ، وهى يد بنى أمية عند بنى صالح[٢] » . وهى عبارة تدل على أن المجوس لم يكتفوا بالإغارة على « نكور » وإفساد نواحيها ، بل استطاعوا أسر أميرها . وفى هذه العبارة أخطاء :

---

(١) أورد هذه الفقرة زيبلد فيما جمع من أخبار النورمانيين فى كتابه :
Rerum Normannicorum ... p. 35.

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٦٦ .

أولها أن ابن القوطية يجعل غزو « نكور » فى أيام الأمير عبد الرحمن ، بينما هى فى أيام محمد، أى فى سنة ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م ، وثانيها أنهم لم يأسروا الأمير إذذاك سعيد بن صالح ، بل اثنين من أبناء اخوته[١] ، ولكنها تفيدنا على كل حال ، وهى تبين لنا أن علاقات الولاء التى ارتبط بها كثير من أمراء العدوة بالأمويين فى الأندلس إنما ترجع إلى ما قبل أيام عبد الرحمن الناصر كما يظن عادة .

ويجمع معظم مؤرخينا على ذكر حادث آخر للمجوس بإفريقية ، وهم يذكرونه بتطويل لا نستطيع معه إيراده بنصه ، وملخصه أن جماعة من المجوس نزلت بموقع ميناء أصيلا اليوم « Arzila » . وأقبل البربر يدافعونهم عن بلادهم ، فقالوا لهم : « لم نأت لحرب ، وإنما لنا كنوز فى هذا الموضع ، فكونوا ناحية حتى نستخرجها ثم نشارككم فيها » . فابتعد البربر وحفر المجوس ، واستخرجوا دَخَناً كثيراً عفناً . فحسب البربر أنه ذهب ، وهجموا على المجوس ، وفر هؤلاء إلى سفنهم . فلما أصاب البربر الدخن ندموا على ما فعلوا ، ورغبوا المجوس فى العودة واستخراج المال ، فقالوا : « قد نقضتم العهد» ، وساروا إلى الأندلس[٢] ويجعل المؤرخون ذلك سنة ٢٢٩ هـ — ٨٤٤م ، أى قبل غزو النورمانيين إشبيلية الذى ذكرناه ، ويحتمل أن يكون قد وقع فى هذا التاريخ فعلا ، ويحتمل كذلك أن يكون قد حدث بعده ، لأن الذى قامت به كانت جماعة من المجوس لا أسطولهم الرئيسى الكبير . ويهمنا من هذا الخبر أن نستنتج أن المجوس كانوا إذا أصابوا فى غزواتهم شيئاً من من الحبوب التمسوا ناحية خالية يعرفونها من الساحل، وحفروا فيها ودفنوا الحبوب ليعودوا لاستخراجها وقت الحاجة ، وتلك ملاحظة لها أهميتها لمن يدرسون تاريخ النورمانيين .

ونمضى فى دراسة رواية ابن عذارى التى ذكرناها عن هذه الغزوة النورمانية الثانية ، فهو يقول إنهم بعد أن أغاروا على « نكور » اتجهوا إلى الأندلس، ونزلوا بساحل تُدْمير وهى مُرْسية . ويبدو أن الساحل فى هذه الناحية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأندلسية لم يكن محروساً تماماً ،

---

(١) Dozy: Recherches, II, p. 282.

(٢) البكرى . المسالك والممالك . أورده زيبل، ص ٧ — ٨ .
ابن عذارى : البيان . ج ١ . أورده زيبل، ص ١٥ — ١٦ .

لأن أحداً لم يكن ينتظر أن تصل إليه ضربات المجوس . ولهذا استطاعوا النزول إلى البر ، وتمكنوا من صعود النهر إلى أوريوله Orihuela، وهى ليست بعيدة إلى الداخل .

ويجمع المؤرخون على أن النورمان ذهبوا بعد ذلك إلى « إفرنجة »، أى إلى جنوبى غالة ، ولا نعرف السبب فى انصرافهم السريع عن الأندلس ، ولكن حركتهم تلك تتفق مع طبيعة غاراتهم إذ ذاك ، فقد كانوا لا يكادون يفوزون بشىء من ناحية حتى يغادروها إلى غيرها إذا لاحت لهم فرصة غزو وغنم أسهل .

وتؤيد المراجع الفرنسية اللاتينية القديمة ما يذكره مؤرخو المسلمين من أن « المجوس » قضوا الشتاء عند ساحل فرنسا الجنوبى ، عند منابع الرون، وأنه غرقت لهم هناك أربعون سفينة فى عاصفة عنيفة. فيذكر « بنواسانت — مور Benoit Sainte-Maur » أن النورمانيين وصلوا سواحل إيطاليا فى هذه الغارة ، ثم أصابتهم عاصفة أثناء رجوعهم ، فغرق من سفنهم نحو أربعين . ويضيف الراوية « برودانس » أن النورمانيين نزلوا سواحل پروڤانس فى ذلك الحين ، وقضوا الشتاء بجزيرة كاماريا (Camaria = Camargue) ، أى فى المثلث المحصور بين فرعى مصب الرون . أما هذا المكان الذى يذهب ابن عذارى إلى أنه سمى باسم النورمانيين ، فلم نستطع تحقيقه ، وذهب دوزى إلى أن « كاماريا » ربما كانت تسمى باسم النورمانيين حتى زمن ابن عذارى — أو زمن المؤرخ الذى نقل عنه وهو عريب بن سعد القرطبى ، أى إلى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، ثم سميت كاماريا بعد ذلك .

فإذا انقضى الشتاء ، شتاء ٢٤٥ هـ — ٨٦٠ م — فقد عاد النورمانيون إلى الأندلس من جديد فى طريقهم إلى بلادهم بمحاذاة ساحل الأندلس الشرقى ، وهنا نجد رواية النويرى أكثر تفصيلا من رواية ابن عذارى ، فهو يقول بعد أن يتحدث عن غارتهم على إفرنجة : « ثم انصرفوا فلقيهم مراكب الأمير محمد ، فقاتلوهم وأحرقوا مركبين من مراكب المجوس ، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيها ، فجد المجوس عند ذلك فى القتال ، فاستشهد جماعة من المسلمين ، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة

(١) Dozy: Recherches, I, p. 282.

Pampluna ، فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى ، ففدى نفسه بتسعين ألف دينار[١] » .

فأما إشارته إلى ملاحقة سفن الأمير محمد لأسطول النورمان ، فتدل على أن محمداً هذا عجل بإرسال سفنه إلى الساحل الشرقى لبلاده لحراستها من المجوس . ولم تظل هذه السفن تنتظرهم فى مياه الأندلس، بل سارت نحو ساحل فرنسا الجنوبى ، ولم تكد سفن المجوس تقلع فى اتجاه شاطىء الأندلس حتى هاجمتها سفن المسلمين هجوماً عنيفاً ، فأغرقت منها سفينتين واستولت على سفينتين أخريين . وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها بأسطول أندلسى فى البحر الأبيض ، ومن ذلك الحين سنجد سفن هذا الأسطول تحرس هذا الساحل وتنشر سيادتها على مياهه ، بل ستستولى على جزائر البليار بعد قليل فى أيام الأمير محمد ، ومن ثم ستسود هذا الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط. وستنشأ دور الصناعة فى مرسية والمرية ، بل ستنشأ موانىء جديدة مثل بجانة Pechina ، ويصبح هذا الساحل من أحصن سواحل الأندلس الإسلامى وأكثرها عمارة ونشاطاً . وهكذا نرى أن هذه الغارات النورمانية كانت العامل الأول فى ميلاد البحرية الأندلسية على السواحل الغربية أولا ، ثم الجنوبية ثم الشرقية .

وأما ما ذكره النويرى من غارة النورمانيين على « مدينة بنبلونة » ، وأسرهم صاحبها غرسية ، فتؤيده المراجع الإسبانية النصرانية كذلك . فقد كان على عرش ناقار (نبرة) إذذك أمير يسمى غرسية بن انيچو Garcia-Inego ، ولكن النويرى وابن الأثير ينفردان[٢] بذكر أسر النورمانيين إياه، وافتدائه نفسه بتسعين ألف دينار ، وتاريخ « نبرة » فى هذه العصور أغمض من أن نستطيع تحقيق هذه النقطة على أى حال .

واختفى المجوس بعد ذلك ، فلم يظهروا أمام شواطىء الأندلس إلا فى

(١) رواه زيبل فى كتابه الآنف الذكر ، ص ٣٣ .

(٢) انظر زايبل . ص ٢٣ . وقد ذكر المقرى جرثيا بن إنييجو باسم غرسية ابن ونقه،وهو تعريب Inigo ، وذكر أنه كان معاصراً للأمير محمد، ولأردونيو بن اذفنش ، وذكر أنه كان صاحب بنبلونه ، مما يثبت صحة ما ذهب إليه ابن الأثير والنويرى

انظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

Dozy, Recherches, I, 284-285.

خلافة الحكم المستنصر ، وفى أول رجب سنة ٣٥٥هـ — ٢٣ يونيو ٩٦٦ م ، على التحديد . ثم عادوا بعد ذلك بثلاثين سنة ، ونكتفى بهذا القدر من تفصيل غارات النورمانيين فى الأندلس ، لأن هاتين الغارتين الأخيرتين شديدتا الشبه بالغارتين اللتين فصلنا أمرهما .

وقد أشرت إلى النتائج التاريخية لكل غزوة فى موضعها من هذا البحث ، وبقى أن أختمه بالإشارة إلى ما خلقته هذه الغزوات من الرعب فى نفوس أهل الأندلس من هؤلاء القراصنة العتاة . وقد ظل هذا الخوف متأصلا فى نفوس أهل الأندلس إلى زمن الإدريسى ، أى بعد قرنين ونيف ، فهو يقول : « وكان يخرج فيها — أى فى المراكب التى أطلق الأندلسيون عليها اسم القراقر — أقوام يعرفون بالمجوس ، كانت لهم شدة وبأس وجلد على ركوب البحر ، وكانوا إذا خرجوا تُخلى أمامهم أهل السواحل ، يفرون منها مخافة منهم ، وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام أو سبعة ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركباً ، وقد يخرجون فى مائة وأقل وأكثر ، وكانوا يغلبون كل من لقوه فى البحر ويسلبونهم ويأسرونهم[1] » .

---

(١) رواه زيبل . انظر كتابه الآنف الذكر . ص ١١ .

المراجع

مراجع عربية :

مخطوطات :

ابن حيان : « المقتبس » ، قطعة منه عن تاريخ الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، لدى الأستاذ عبد الحميد العبادى بك .

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ج ٣ .

أبو الخطاب بن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب . نسخة مصورة من مخطوط أوكسفورد محفوظة فى دار الكتب المصرية .

كتب مطبوعة :

ابن الأبار : الحلة السيراء ، القطعة التى نشرها دوزى فى كتاب
Notice sur quelques manuscrits arabes, Leyde 1847-1851.
Zeippel: Rerum Normannicorum ...''

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ والقطعة التى نشرها تسايبل فى

أخبار مجموعة ، طبعة لاڤويتنى أى الكانترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى : نزهة المشتاق ، طبعة دوزى ودى خوية ، ليدن ١٨٦٦ .

البكرى : صفة إفريقية والمغرب ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١١ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر (طبعة بولاق) ج ٦ ، والجزء الذى نشره تسايبل فى كتابه الآنف الذكر .

ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، طبعة ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ج ١ ، ٢ ، ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ .

الفراء ، أبو على الحسين بن محمد ، رسل الملوك ، طبعة القاهرة ١٩٤٧ .
القزوينى ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد ، القطعة التى نشرها تسايبل فى كتابه الآنف الذكر .
ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة رميرا ، مدريد ١٩٢٦ .
المقرى ، نفح الطيب ، طبعة دوزى ورايت وكريل ودوجا ، ليدن سنة ١٨٥٥ — ١٨٦١ .
المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٨ .
النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١، ٢ ، طبعة جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٨ .

مراجع غير عربية :

BALLESTEROS; *Historia de Espana y su influen:ia universal.* (Barcelona 1918-1936) vol. II.

Chronicon Albeldense apud A. HUICI: *Cronicas ıàtinas de la Reconquista.* (Valencia, 1923) v. I.

DANSTRUP, JOHN, *A history of Denmark* (London 1930).

DIERKS, GUSTAV: *Geschichte Spaniens von dən fruhsten Zeiten bis auf die Gegenwart.* (Hambourg 1890) vol. I.

DOZY, R., *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (2e. éd. Leyde 1931) vol. II.

DOZY. R., *Recherches sur l'histoire et la littératu:e de l'Espagne pendant le moyen-âge.* (Leyde, 1ère éd.) vol. II. pp. 250 *sqq.*

FISHER: *A history of Europe.* (London 1937).

KRUSE, *Chronicon Nortmannorum...*, apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 250.

KUNIK: *Die Berufung der schwedischen Rodsen durch die Finnen und Slawen,* tome II. apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 257.

JACOB, GEORG; *Arabische Berichte von Gesandten an germanische Furstenhofe am g.u.* 10. *Johrhundert.* (Leipzig u. Berlin, 1927).

JACOB, GEORG: *Studien in arabischen Geografen.* (Berlin 1891) Heft 1.

LÉVI PROVENÇAL: *Un échange d'ambassade: entre Cordoue et Byzance au IXe. siècle* dans: *L'Islam d'Occident.* (Paris, 1948) pp. 79 *sqq.*

Ibidem: *Histoire de l'Espagne musulmane.* tome I. (Le Caire 1944).

MAWER, ALLEN; *The Vikings. Camb. Med. Hist.* III.

MOOYER: *Die Einfalle der Normannen in die pyrenaische Halbinsel. Eine grosztentheils aus dem Danischen ubersetzte Zusammenstellung der daruber vorhandenen Nachrichten.* Munster u. Munden.

WEINHOLD, KARL: *Altnordisches Leben.*

حسين مؤنس